بسم الله الرحمن الرحيم

١٧ — سورة الإسراء

وتسمى سورة بنى إسرائيل وسورة سبحان ، ولم يحك خلاف فى كونها مكية. نعم استثنى بعضهم منها: (١)(وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ)وآية (٢)(وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ) إلى قوله تعالى (إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا) وآية (٣) (قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ) الآية وقوله (٤) (وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ...) الآية ، وقوله (٥)(إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ) لما ذكروه فى أسباب نزولها . ويأتى البحث فى ذلك إن شاء الله تعالى ، وآياتها مائة وإحدى عشرة .

---

(١) [١٧ / الإسراء / ٨٥] . (٢) [١٧ / الإسراء / ٧٣] .
(٣) [١٧ / الإسراء / ٨٨]. (٤) [١٧/ الإسراء/ ٦٠] . (٥) [١٧/الإسراء/١٠٧].

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ، إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ)

« سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ، إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ » .

يمجد تعالى نفسه بقوله (سُبْحَانَ) وينزه ذاته العلية عما لا يليق بجلاله ، ويعظم شأنه لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه فلا إله غيره. وقوله تعالى (ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ) أى سيّره منه ليلًا . و (أسرى) بمعنى (سرى) يقال : أسراه وأسرى به وسرى به . فهمزة (أسرى) ليست للتعدية . ولذا عدى بالباء. وفرق بعضهم بين أسرى وسرى بالمبالغة فى (أسرى) لإفادة السرعة فى السير ولذا أوثر على (سرى) .

والإسراء سير الليل كله، كأسرى ، فقوله تعالى (لَيْلًا) للتأكيد أو للتجريد عن بعض القيود . مثل : أسعفت مرامه . مع أن الإسعاف قضاء الحاجة . أو للتنبيه على أنه المقصود بالذكر . وقد استظهره الناصر فى (الانتصاف) قال : ونظيره فى إفراد أحد مادل عليه اللفظ المتقدم مضموماً لغيره ، قوله تعالى[1] (لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ، إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ) فالاسم الحامل للتثنية دال عليها وعلى الجنسية ، وكذلك المفرد . فأريد التنبيه على أن أحد المعنيين ، وهو التثنية ، مراد مقصود ، وكذلك أريد الإيقاظ ، لأن الوحدانية هى المقصودة فى قوله (إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ) ولو اقتصر على قوله (إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ) لأوهم أن المهم إثبات الإلهية له . والغرض من الكلام ليس إلا إثبات الوحدانية .

---

(١) [١٦ / النحل / ٥١] .

وقيل سرّ قوله (لَيْلًا) إفادة تقليل الوقت الذى كان الإسراء والرجوع فيه . أى أنه كان فى بعض الليل أخذا من تنكيره . فقد نقل عن سيبويه أن الليل والنهار إذا عُرِّفا كانا معياراً للتعميم ، فلا تقول أرقت الليل ، وأنت تريد ساعة منه ، إلا أن تقصد المبالغة . بخلاف المنكر فإنه لا يفيد ذلك . فلما عدل عن تعريفه هنا ، علم أنه لم يقصد استغراق السرى ، وهذا هو المراد من البعضية . وجوز بعضهم أن يكون (أسرى) من (السراة) وهى الأرض الواسعة . وأصله من الواو . أسرى مثل أجبل وأتهم ، أى ذهب به فى سراة من الأرض ، وهو غريب . وفى تخصيص الليل إعلام بفضله لأنه وقت السر والنجوى والتجلى الأسمى ، ولذلك كان أكثر عبادته ﷺ بالليل . والمراد (بعبده) خاتم أنبيائه محمد ﷺ . وفى ذكره بعنوان العبودية مع الإضافة إلى ضمير الجلالة ، من التشريف والتنويه والتنبيه على اختصاصه به عزّ وجلّ وانقياده لأوامره ـ ما لا يخفى .

والعبد ، لغةً ، الإنسان مطلقاً والمملوك والعبودية الذل والخضوع والرق والطاعة ، كالعبادة والعبودة .

قال ابن القيّم فى (طريق الهجرتين) : أكمل الخلق أكملهم عبودية . وأعظمهم شهودا . لِفَقْرِهِ وضرورته وحاجته إلى ربه ، وعدم استغنائه عنه طرفة عين . ولهذا كان من دعائه ﷺ : أصلح لى شأنى كله ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ولا إلى أحد من خلقك .

ثم قال : ولهذا كان أقرب الخلق إلى الله وسيلة ، وأعظمهم عنده جاها ، وأرفعهم عنده منزلة ، لتكميله مقام العبودية والفقر . وكان يقول : أيها الناس ! ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى . إنّما أنا عبد . وكان يقول[1] : لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح بن مريم . إنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله . وذكره سبحانه بسمة العبودية فى أشرف مقاماته : مقام

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٤٨ ـ باب وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ، حديث رقم ١٢١٤ .

الإسراء ، ومقام الدعوة ، ومقام التحدى . فقال (سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا) وقال[١] (وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ) وقال[٢] (وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا) وفى حديث الشفاعة : أنَّ المسيح يقول لهم : اذهبوا إلى محمد، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . فنال ذلك بكمال عبوديته لله ، وبكمال مغفرة الله له . انتهى .

وقوله تعالى (مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ) يعنى مسجد مكة المكرمة . سمى حراماً ، كبلده، لكونه لا يحل انتهاكه بقتال فيه ، ولا بصيد صيده ، ولا بقطع شجره ولا كلئه . وقوله سبحانه (إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا) هو مسجد بيت المقدس ، وكان يعرف بهيكل سليمان لأنه الذى بناه وشيده (والأقصا) بمعنى الأبعد . سمى بذلك لبعده عن مكة ، وقوله تعالى (ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ) أى جوانبه ببركات الدين والدنيا . لأن تلك الأرض المقدسة مقر الأنبياء ومهبط وحيهم ومنمى الزروع والثمار . فاكتنفته البركة الإلهية من نواحيه كلها . فبركته إذن مضاعفة ، لكونه فى أرض مباركة ، ولكونه من أعظم مساجد الله تعالى . والمساجد بيوت الله . ولكونه متعبدَ الأنبياء ومقامهم ومهبط وحيه عليهم ، فبورك فيه ببركتهم ويمنهم أيضاً .

وقد قيل فى خصائص (الأقصا) : إنه متعبد الأنبياء السابقين ، ومسرى خاتم النبيين ، ومعراجه إلى السموات العلى والمشهد الأسمى . بيت نوّه الله به فى الآيات المفصلة ، وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة . لأجله أمسك الله الشمس على يوشع أن تغرب ليتيسر فتحه على من وعدوا به ويقرُب . وهو قبلة الصلاة فى الملتين ، وفى صدر الإسلام بعد الهجرتين . وهو أولى القبلتين وثانى المسجدين وثالث الحرمين . لا تشدّ الرحال[٣] بعد المسجدين إلا إليه ،

---

(١) [٧٢ / الجن / ١٩] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٣] .

(٣) حديث لا تشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ، الخ . أخرجه البخارىّ فى : =

ولاتعقد الخناصر بعد الوطنين إلاعليه . انتهى . ومن فضائله مارواه الإمام أحمد[1] والنسائى والحاكم وصححه ، عن ابن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه ثلاثاً . فأعطاه اثنتين وأنا أرجو أن يكون أعطاه الثالثة .

سأله حكما يصادف حكمه فأعطاه إياه .

وسأله ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده فأعطاه إياه .

وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة فى هذا المسجد ـ يعنى بيت المقدس ـ خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه .

قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : ونحن نرجو أن يكون الله أعطاه ذلك .

وروى أن ابن عمر كان إذا دخله لا يشرب من مائه . تجريداً لقصد الصلاة .

وقال الشيرازىّ فى (عرائس البيان) : كان بداية المعراج الذهاب إلى الأقصى . لأن هناك الآيات الكبرى من أنوار تجليه تعالى لأرواح الأنبياء وأشباحهم . وهناك بقربه طورسينا وطورزيتا ومقام إبراهيم وموسى وعيسى فى تلك الجبال ، مواضع كشوف الحق . لذلك قال (بَارَكْنَا حَوْلَهُ) . انتهى .

والالتفات فى (بَارَكْنَا) لتعظيم ماذكر . لأن فعل العظيم يكون عظيما . لاسيما إذا عبّر عنه بصيغة التعظيم . والنكتة العامة تنشيط السامعين .

= ٢٠ ـ كتاب فضل الصلاة فى مسجد مكة والمدينة ، ٦ـ باب مسجد بيت المقدس ، حديث ٣٧٩ ، عن أبى سعيد الخدرىّ .

وأخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث رقم ٤١٥ (طبعتنا) .

(١) من حديث طويل عن عبد الله بن عمرو ، أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ١٧٦ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٦٦٤٤ (طبعة المعارف) .

وأخرجه النسائىّ فى : ٨ـ كتاب المساجد ، ٦ـ باب فضل المسجد الأقصى والصلاة فيه .

وقوله تعالى (لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ) إشارة إلى حكمة الإسراء. أى لكى نُرِى محمداً صلى الله عليه وسلم من آياتنا العظيمة التى من جملتها ذهابه فى برهة من الليل ، مسيرةَ شهر ، ومشاهدةُ بيت المقدس وتمثل الأنبياء له ووقوفه على مقاماتهم العلية .

قيل : أراد تعالى أن يريه صلى الله عليه وسلم من الآيات الحسية بعد ما أراه الآيات العقلية . لأن الآيات الحسية أكبر فى قطع الشبهة ودفع الوساوس من العقلية . إذ لا يشك أحد فيما كان سبيل معرفته الحس والعيان. وقد تعترض الشبهة والوساوس فى العقليات . لأنه لا يشك أحد فى نفسه أنه هو . فشاء عز وجل أن يرى رسوله آيات حسية فتدفع المنصفين إلى قبولها والإيمان بها والإقرار له بالرسالة . إذ ليس ذلك عمل سحر ولا افتراء ولا أساطير الأولين ، كذا يستفاد من (التأويلات) لأبى منصور .

وما أحسن ما قاله ابن إسحق[1] : كان فى مسراه صلى الله عليه وسلم وما ذكر منه بلاء وتمحيص وأمر من أمر الله فى قدرته وسلطانه . فيه عبرة لأولى الألباب ، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن بالله وصدق . وكان من أمر الله سبحانه وتعالى على يقين . فأسرى به سبحانه وتعالى كيف شاء ليريه من آياته ما أراد . حتى عاين ماعاين من أمره وسلطانه العظيم، وقدرته التى يصنع بها ما يريد . انتهى .

وقوله تعالى: (إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ) أى السميع لأقوال عباده وأفعالهم فلا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

تنبيهات :

الأول : دلت هذه الآية على ثبوت الإسراء ، وهو سير النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ليلا . وأما العروج إلى السموات وإلى ما فوق العرش فهذه الآية لا تدل عليه .

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٢٦٣ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ٣٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

ومنهم من يستدل عليه بأول سورة النجم . والكلام عليه ثمة .

الثانية : ذهب الأكثرون إلى أن الإسراء كان بعد المبعث ، وأنه قبل الهجرة بسنة . قاله الزهريّ وابن سعد وغيرهما . وبه جزم النوويّ، وبالغ ابن حزم فنقل الإجماع فيه. وقال: كان فى رجب سنة اثنتى عشرة من النبوة .

وفى (إنسان العيون) : أن تلك الليلة كانت ليلة سبع عشرة. وقيل سبع وعشرين خلت من ربيع الأول ، وقيل : ليلة تسع وعشرين خلت من رمضان ، وقيل سبع وعشرين خلت من ربيع الآخر ، وقيل : من رجب واختار هذا الأخير ، الحافظ عبد الغنىّ المقدسىّ قال : وعليه عمل الناس . والله أعلم .

الثالث : فى (زاد المعاد) لابن القيم : كان الإسراء مرة واحدة وقيل : مرتين ، مرة يقظة ومرة مناماً . وأرباب هـذا القول كأنهم أرادوا أن يجمعوا بين حديث شريك وقوله (ثم استيقظت) .وبين سائر الروايات . ومنهم من قال : بل كان هذا مرتين: مره قبل الوحى لقوله فى حديث شريك (وذلك قبل أن يوحى إليه) ومرة بعـد الوحى كما دلت عليه سائر الأحاديث. ومنهم من قال : بل ثلاث مرات : مرة قبل الوحى ومرتين بعده. وكل هذا خبط وهذه طريقة ضعفاء الظاهرية من أرباب النقل ، الذين إذا رأوا فى القصة لفظة تخالف سياق بعض الروايات، جعلوه مرة أخرى. فكلما اختلفت عليهم الروايات عددوا الوقائع . والصواب الذى عليه أئمة النقل ؛ أن الإسراء كان مرة واحدة بمكة بعد البعثة . ويا عجباً لهؤلاء الذين زعموا أنه كان مراراً ! كيف ساغ لهم أن يظنوا أنه فى كل مرة تفرض عليه الصلوات خمسين ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى تصير خمساً، ثم يقول أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى. ثم يعيدها فى المرة الثانية إلى خمسين ثم يحطها عشراً عشراً ؟ ! .

الرابع : قال القاضى عياض، عليه الرحمة ، فى (الشفا) : اختلف السلف والعلماء هل كان إسراء بروحه أو جسده على ثلاث مقالات : فذهبت طائفة إلى أنه إسراء بالروح ، وأنه رؤيا منام . مع اتفاقهم أن رؤيا الأنبياء حق ووحى . وإلى هـذا ذهب معاوية . وحكى عن

الحسن (والمشهور عنه خلافه) وإليه أشار محمد بن إسحق . وحجتهم قوله تعالى[١] (وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ) وما حكوا عن عائشة : مافقدت جسد رسول الله ﷺ وقوله (بينا أنا نائم) . وقول أنس : (وهو نائم فى المسجد الحرام) وذكر القصة . ثم قال فى آخرها : (فاستيقظ وأنا بالمسجد الحرام) .

وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه إسراء بالجسد وفى اليقظة. وهذا هو الحق، وهذا قول ابن عباس وجابر وأنس وحذيفة وعمر وأبى هريرة ومالك بن صعصعة وأبى حبة البدرىّ وابن مسعود والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة وابن المسيّب وابن شهاب وابن زيد والحسن وإبراهيم ومسروق ومجاهد وعكرمة وابن جريج . وهو دليل قول عائشة. وهو قول الطبرىّ وابن حنبل وجماعة عظيمة من المسلمين . وهو قول أكثر المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين .

وقالت طائفة : كان الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقدس . وإلى السماء بالروح : واحتجوا بقوله (سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ...) الآية فجعل المسجد الأقصى غاية الإسراء الذى وقع التعجب فيه بعظيم القدرة والتمدح بتشريف النبىّ وإظهار الكرامة له بالإسراء إليه. قال هؤلاء: ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره، فيكون أبلغ فى المدح.

ثم اختلفت هاتان الفرقتان: هل صلى ببيت المقدس أم لا؟ ففى حديث أنس وغيره صلاته فيه . وأنكر ذلك حذيفة وقال : والله ! ما زالا عن ظهر البراق حتى رجعا .

ثم قال القاضى عياض: والحق فى هذا والصحيح، إن شاء الله، أنه إسراء بالجسد والروح فى القصة كلها. وعليه تدل الآية وصحيح الأخبار والاعتبار . ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل، إلا عند الاستحالة، وليس فى الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة. إذ لو كان مناماً لقال (بروح عبده) ولم يقل (بعبده) وقوله[٢] (مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ) ولو كان

(١) [١٧ / الإسراء / ٦٠] . (٢) [٥٣ / النجم / ١٧] .

مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة . ولما استبعده الكفار ولا كذبوه . ولا ارتد به ضعفاء من أسلم وافتتنوا به . إذ مثل هذا من المنامات لاينكر. بل لم يكن ذلك منهم إلا وقدعلموا أن خبره إنما كان عن جسمه وحال يقظته، إلى ما ذكر فى الحديث، من ذكر صلاته بالأنبياء ببيت المقدس فى رواية أنس (أوفى السماء) على ماروى غيره. وذكر مجىء جبريل له بالبراق وخبر المعراج واستفتاح السماء فيقال : ومن معك ؟ فيقول : محمد . ولقائه الأنبياء فيها وخبرهم معه وترحيبهم به وشأنه فى فرض الصلاة ومراجعته مع موسى فى ذلك .

وفى بعض هذه الأخبار : فأخذ ، يعنى جبريل ، بيدى ، فعرج بى إلى السماء إلى قوله : ثم عرج بى حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام . وأنه وصل إلى سدرة المنتهى ، وأنه دخل الجنة ورأى فيها ما ذكره . قال ابن عباس: هى رؤيا عين رآها النبىّ صلى الله عليه وسلم ، لارؤيا منام .

وعن الحسن فيه بَيْنَا أنا نائم فى الحجر جاءنى جبريل فهمزنى بعقبه فقمت فجلست فلم أر شيئا . فعدت لمضجعى . ذكر ذلك ثلاثا ، فقال فى الثالثة: فأخذ بعضدى فجرنى إلى باب المسجد ، فإذا بدابة . وذكر خبر البراق .

وعن أم هانئ : ما أسرى برسول الله ﷺ إلا وهو فى بيتى تلك الليلة . صلى العشاء الآخرة ونام بيننا . فلما كان قبيل الفجر أَهَبَّنَا رسولُ الله ﷺ . فلما صلى الصبح وصلينا قال : يا أم هانئ ! لقد صليت معكم العشاء الآخرة ، كما رأيت بهذا الوادى ، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه . ثم صليت الغداة معكم الآن كما ترون . وهذا بيّن فى أنه بجسمه .

وعن أبى بكر (من رواية شداد بن أوس عنه) أنه قال للنبىّ ﷺ ليلة أسرى به : طلبتك يارسول الله البارحة فى مكانك فلم أجدك . فأجابه : أن جبريل حمله إلى المسجد الأقصى .

وعن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : صليت ليلة أسرى بى فى مقدم المسجد ثم دخلت الصخرة ـ وهذه التصريحات ظاهرة غير مستحيلة . فتحمل على ظاهرها .

وعن أبي ذرّ رضى الله عنه : عن النبيّ ﷺ : فرج سقف بيتي وأنا بمكة ، فنزل جبريل ثم أخذ بيدي فعرج بي .

وعن أنس : أتيت فانطلقوا بي إلى زمزم. وعن أبي هريرة: لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي . فسألتني عن أشياء لم أثبتها ، فكربت كرباً ما كربت مثله قط ، فرفعه الله لي أنظر إليه . ونحوه عن جابر .

وقد روى عمر بن الخطاب رضى الله عنه في حديث الإسراء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : ثم رجعت إلى خديجة وما تحولت عن جانبها .

ثم قال القاضي عياض (في إبطال حجج من قال إنها نوم) . احتجوا بقوله (وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا) فسماها (رؤيا) . قلنا : قوله (سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ) يرده لأنه لا يقال في النوم (أسرى) .

وقوله (فِتْنَةً لِّلنَّاسِ) يؤيد أنها رؤيا عين وإسراء شخص . إذ ليس في الحلم فتنة ولا يكذب به أحد . لأن كل أحد يرى مثل ذلك في منامه من الكون في ساعة واحدة في أقطار متباينة . على أن المفسرين قد اختلفوا في هذه الآية . فذهب بعضهم إلى أنها نزلت في قصة الحديبية وما وقع في نفوس الناس من ذلك . وقيل غير هذا .

وأما قولهم : إنه قد سمّاها في الحديث مناماً ، وقوله في حديث آخر : بين النائم واليقظان. وقوله أيضاً : وهو نائم . وقوله : ثم استيقظت ـ فلا حجة فيه . إذ يحتمل أن أول وصول الملك إليه كان وهو نائم . أو أول حمله والإسراء به وهو نائم . وليس في الحديث أنه كان نائما في القصة كلها إلا ما يدل عليه (ثم استيقظت وأنا في المسجد الحرام) فلعل قوله (استيقظت) بمعنى أصبحت . أو استيقظ من نوم آخر بعد وصوله بيته . ويدل عليه أن مسراه لم يكن طول ليله . وإنما كان في بعضه . وقد يكون قوله (استيقظت وأنا في المسجد الحرام) لما كان عمره من عجائب ما طالع من ملكوت السموات والأرض ، وخامر بطنه من

مشاهدة الملإ الأعلى ، وما رأى من آيات ربه الكبرى . فلم يستفق ويرجع إلى حال البشرية إلا وهو بالمسجد الحرام . ووجه ثالث ؛ أن يكون نومه واستيقاظه حقيقة على مقتضى لفظه. ولكنه أسرى بجسده وقلبه حاضر . ورؤيا الأنبياء حق . تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم .

وقد مال بعض أصحاب الإشارات إلى نحوٍ من هذا . قال : تغميض عينيه لئلا يشغله شيء من المحسوسات عن الله ، ولا يصح هذا أن يكون فى وقت صلاته بالأنبياء ، ولعله كانت له فى هذا الإسراء حالات .

ووجه رابع ، وهو أن يعبر بالنوم ههنا عن هيئة النائم من الاضطجاع . ويقويه قوله فى رواية عبد بن حميد عن همام : (بينا أنا نائم وربما قال مضطجع) وفى رواية هدبة عنه (بينا أنا فى الحطيم وربما قال فى الحجر مضطجع) . وقوله فى الرواية الأخرى (بين النائم واليقظان) فيكون سمى هيئته بالنوم لما كانت هيئة النائم غالباً . وذهب بعضهم إلى أن هذه الزيادات من النوم وذكر شق البطن ودنو الرَّب ، الواقعة فى هذا الحديث ، إنما هى من رواية شريك عن أنس . فهى منكرة من روايته . انتهى كلام عياض . وبقيت له بقية من شاء فليراجعها .

الخامس : جملة الأقوال فى الإسراء والمعراج ، على ما حكاه ابن القيم فى (زاد المعاد) ، ستة : بروحه وجسده وهو الذى صححوه . وقيل : كان ذلك مناماً. وقيل بل يقال أسرى به ولا يقال يقظة ولا مناماً . وقيل كان الإسراء إلى بيت المقدس يقظة وإلى السماء مناماً، وقيل: كان الإسراء مرتين، مرة يقظة ومرة مناما. وقيل بل أسرى به ثلاث مرات. وكان ذلك بعد البعث بالاتفاق . وأما ما وقع فى حديث شريك أن ذلك قبل أن يوحى إليه ، فقيل هو غلط ، وقيل : الوحى هنا مقيد وليس بالوحى المطلق الذى هو مبدأ النبوة . والمراد قبل أن يوحى إليه فى شأن الإسراء ، فأسرى به فجأة من غير تقدم إعلام . وقد قدمنا أن عائشة ومعاوية والحسن ، نقل الأكثرون عنهم ؛ أنها رؤيا منام ، وكذا حكى ابن جرير عن حذيفة .

إلا أن ابن القيم نبه على دقيقة غريبة . قال رحمه الله : نقل ابن إسحق عن عائشة ومعاوية أنهما قالا : إنما كان الإسراء بروحه ولم يفقد جسده . ونقل عن الحسن البصرىّ نحو ذلك. ولكن ينبغى أن يعلم الفرق بين أن يقال: كان الإسراء مناماً، وبين أن يقال: كان بروحه دون جسده . وبينهما فرق عظيم . وعائشة ومعاوية لم يقولا كان مناماً وإنما قالا: أسرى بروحه ولم يفقد جسده . وفرق بين الأمرين . فإن ما يراه النائم قد يكون أمثالا مضروبة للمعلوم فى الصور المحسوسة . فيرى كأنه قد عرج به إلى السماء ، أو ذهب به إلى مكة وأقطار الأرض . وروحه لم تصعد ولم تذهب . وإنما ملك الرؤيا ضرب له المثال . والذين قالوا عرج برسول الله صلى الله عليه وسلم طائفتان : طائفة قالت : عرج بروحه وبدنه ، وطائفة قالت : عرج بروحه ولم يفقد بدنه . وهؤلاء لم يريدوا أن المعراج كان مناما . وإنما أرادوا أن الروح ذاتها أسرى بها وعرج بها حقيقة . وباشرت من جنس ما تباشر بعد المفارقة فى صعودها إلى السموات سماء سماء، حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة، فتقف بين يدى الله عزوجل. فيأمر فيها بما يشاء ثم تنزل إلى الأرض . فالذى كان لرسول الله ﷺ ليلة الإسراء أكمل مما يحصل للروح عند المفارقة . ومعلوم أن هذا أمر فوق ما يراه النائم . لكن لما كان رسول الله ﷺ فى مقام خرق العوائد ، حتى شق بطنه وهو حىّ لا يتألم ؛ كذلك عرج بذات روحه المقدسة حقيقة من غير إماتة . ومَن سواه، ﷺ ، لا تنال ذات روحه الصعود إلى السماء إلا بعد الموت والمفارقة . فالأنبياء إنما استقرت أرواحهم هناك بعد مفارقة الأبدان . وروح رسول الله ﷺ صعدت إلى هناك فى حال الحياة ثم عادت . وبعد وفاته استقرت فى الرفيق الأعلى مع أرواح الأنبياء . ومع هذا فلها إشراف على البدن وإشراق وتعلق به . بحيث يرد السلام على من سلم عليه . وبهذا التعلق رأى موسى قائما يصلى فى قبره ، ورآه فى السماء السادسة ، ومعلوم أنه لم يعرج بموسى من قبره ثم رد إليه ، وإنما ذلك مقام روحه واستقرارها ، وقبره مقام بدنه واستقراره إلى يوم معاد الأرواح إلى أجسادها . فرآه يصلى فى قبره ورآه فى السماء السادسة. كما أنه ﷺ فى أرفع مكان فى الرفيق الأعلى مستقراً هناك .

وبدنه فى ضريحه غير مفقود . وإذا سلم عليه المسلم ، ردّ الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام ولم يفارق الملأ الأعلى . ومن كثف إدراكه وغلظت طباعه عن إدراك هـذا ، فلينظر إلى الشمس فى علوّ محلها وتعلقها وتأثيرها فى الأرض ، وحياة النبات والحيوان بها . هـذا ، وشأن الروح فوق هذا . فلها شأن وللأبدان شأن. وهذه النار تكون فى محلها ، وحرارتها تؤثر فى الجسم البعيد عنها . مع أن الارتباط والتعلق الذى بين الروح والبدن أقوى وأكمل من ذلك وأتم . فشأن الروح أعلى من ذلك وألطف .

فقلْ للعيون الرُّمْدِ إياكِ أنْ ترَىْ سنا الشَّمسِ فاستغشِى ظَلامَ اللَّيَالِيَا

انتهى كلام ابن القيم .

وقال العلامة سعدى فى (حواشى البيضاوىّ) : والمعراج بروحه فى اليقظة ـ وهو الذى أشار إليه ابن القيم ـ خارق أيضاً للعادة . انتهى .

وتعقب العلامة القنوى له: بأنه نوع مراقبة وانسلاخ، والذى ذهب إليه الصوفية ساقط. لأنه فوقه بكثير . بل غـيره كما تبين قبل . وبالجملة ، فالذى فهمه الأكثرون من قول عائشة ومعاوية وحذيفة والحسن ؛ أن ذلك رؤيا منام . وما ذكره ابن القيّم من أنه إسراء بالروح ـ فيحتمله اللفظ المأثور عنهم .

ونظـيره قول بعضهم : إن ذلك كان أمراً إعجازيًّا . والحقيقة أنه كشف روحانىّ . وقد قرروا فى عدم استحالة كونه يقظة بالروح والجسم ؛ أن خالق العالم قادر على كل الممكنات. وحصول الحركة البالغة فى السرعة إلى هذا الحد فى جسده ﷺ ممكن . فوجب كونه تعالى قادراً عليه . وغاية ما فى الباب أنه خلاف العادة . والمعجزات كلها كذلك . وفى (العقائد النسفية وحواشيها): الخرق والالتئام على السموات جائز. لأن الأجسام كلها متماثلة فى تركبها من الجواهر الفردة ، فيصح على كلٍّ ما يصح على الآخر . فالأجسام العنصرية قابلة للخرق والالتئام. وكذا الأجسام الفلكية. والله تعالى قادر على الممكنات كلها. فيكون قادراً على الخرق فى السموات ، لأنه ممكن فيها . وفى الرازىّ براهين أخر . فانظرها .

جاء فى كتاب (إظهار الحق) أن بعض أهل الكتاب مارَى فى المعراج ، فَبُكِّتَ بأن صعود الجسم العنصرىّ إلى الأفلاك صرّحت به التوراة الموجودة لديهم فى (أخنوخ) . وأنه نقل حيًّا إلى السماء لئلا يرى الموت . كما فى الفصل الخامس من سفر التكوين . وصرّحت فى صعود (إليا) فى الفصل الثانى من سفر الملوك . وفى إنجيل مرقس فى الفصل السادس عشر التصريح برفع المسيح عليه السلام إلى السماء . انتهى .

أقول : أخنوخ هو إدريس عليه السلام المنوّه به فى قوله تعالى[1] (وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا) وإيليا نبيٌّ أرسل إلى آحاب أحد ملوك اليهود الكفرة ، الذين شهروا عبادة بعل وغيره من الأصنام بالسامرة . وتسمى الآن : سِبَسْطِيَّة : من قسم الأرض المقدسة . زعموا أنه ظهرت على يد إيليا خوارق باهرة . وأنه قتل سدنة بعل وهدم مذبحه . إلى أن ارتفع فى مركبة نارية وخيل نارية نحو السماء . جانب نهر الأردن فى بطاح أريحا . شاهده خليفته اليشاع النبيّ بعده . كذا فى تاريخ الكتاب المقدس ، و (إيليا) هو إلياس ، و (اليشاع) هو اليسع المذكوران فى القرآن المجيد. وقد نوّه بالأول فى سورة الصافات بقوله تعالى[2] (وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ * ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ...) الآيات

السادس ـ قيل : إن المسجد الأقصى فى زمن الإسراء كان خراباً . بشهادة التاريخ . وذلك لأن سليمان عليه السلام بناه على مكان الصخرة . ثم خرب وألقيت على الصخرة زبالة البلد عناداً لليهود . وبقى كذلك حتى فتح أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه القدس . انظر (تاريخ أبى الفدا) وغيره . فكيف أطلق عليه اسم المسجد ؟ وأجيب : بأن المسجد فى حال هدمه يسمى مسجداً . باعتبار ما كان عليه وما وضع له . كما أطلق المسجد على حرم مكة . وهو لم يكن يومئذ مسجداً . وإنما كان بيتاً للأصنام .

---

(١) [١٩ / مريم / ٥٧] . (٢) [٣٧ / الصافات / ١٢٣ـ١٢٦] .

لكن إبراهيم وإسماعيل ، لما بنيا الكعبة للعبادة الصحيحة ، كما بنى سليمان هيكله هذا لها ، سمى مسجداً بهذا الاعتبار . أو يقال : إنه أطلق عليهما اسم المسجد للإشارة إلى ما يؤول إليه أمرهما . وهو كونهما مسجدين للمسلمين .

السابع : فى التفاضل بين ليلة القدر وليلة الإسراء . سئل الإمام تقى الدين أحمد بن تيمية رضى الله عنه ، عن رجل قال : ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر ، وقال آخر : بل ليلة القدر أفضل . فأيهما المصيب ؟

فأجاب : أما القائل بأن ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر ، إن أراد به أن تكون الليلة التى أسرى فيها بالنبىّ ﷺ ونظائرها من كل عام أفضل لأمة محمد ﷺ من ليلة القدر ، بحيث يكون قيامها والدعاء فيها أفضل منه فى ليلة القدر . فهذا باطل لم يقله أحد من المسلمين ، وهو معلوم الفساد بالاضطرار من دين الإسلام . هذا إذا كانت ليلة الإسراء يعرف عينها . فكيف ولم يقم دليل معلوم لا على شهرها ولا عشرها ولا على عينها ؟ بل النقول فى ذلك منقطعة مختلفة ، ليس فيها ما يقطع به ، ولا شرع للمسلمين تخصيص الليلة ، التى يظن أنها ليلة الإسراء ، بقيام ولا غيره . بخلاف ليلة القدر فإنه قد ثبت فى الصحيحين[1] عن النبىّ ﷺ أنه قال : من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه وفى الصحيحين[2] عنه :

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣٢ ـ كتاب فضل ليلة القدر ، ١ ـ باب فضل ليلة القدر وقول الله تعالى : إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ... الخ ، حديث رقم ٣٣ ، عن أبى هريرة .

وأخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، الحديث رقم ١٧٥ (طبعتنا).

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٣٢ ـ كتاب فضل ليلة القدر ، ٣ ـ باب تحرّى ليلة القدر فى الوتر من العشر الأواخر ، حديث رقم ١٠٢٥ ، عن عائشة .

وأخرجه مسلم فى : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث رقم ٢١٩ (طبعتنا) .

تحروا ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان . وقد أخبر سبحانه أنها خير من ألف شهر. فإنه نزل فيها القرآن .

وإن أراد أن الليلة المعينة التى أسرى فيها بالنبى ﷺ ، وحصل له فيها ما لم يحصل له فى غيرها ، من غير أن يشرع تخصيصها بقيام ولا عبادة ، فهذا صحيح. وليس إذا أعطى الله نبيه ﷺ فضيلة فى مكان أو زمان ، يجب أن يكون ذلك الزمان والمكان أفضل من جميع الأمكنة والأزمنة . هذا إذا قدِّر أنه قام دليل على أن إنعام الله تعالى على نبيه ليلة الإسراء كان أعظم من إنعامه عليه بإنزال القرآن ليلة القدر ، وغير ذلك من النعم التى أنعم عليه. والكلام فى مثل هذا يحتاج إلى علم بحقائق الأمور ومقادير النعم التى لا تعرف إلا بوحى. ولا يجوز لأحد أن يتكلم فيها بلا علم.

ولا يعرف عن أحد من المسلمين أنه نقل لليلة الإسراء فضيلة على غيرها. لا سيما على ليلة القدر . ولا كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان يقصدون تخصيص ليلة الإسراء بأمر من الأمور ولا يذكرونها. ولهذا لا يعرف أى ليلة كانت. وإن كان الإسراء من أعظم فضائله ﷺ . ومع هذا فلم يشرع تخصيص ذلك الزمان ولا ذلك المكان بعبادة شرعية. بل غار حراء الذى ابتدئ فيه بنزول الوحى ، وكان يتحراه قبل النبوة ، لم يقصده هو ولا أحد من أصحابه بعد النبوة ، مدة مقامه بمكة . ولا خص اليوم الذى أنزل فيه الوحى بعبادة ولا غيرها. ولا خص المكان الذى ابتدئ فيه الوحى ولا الزمان بشىء . ومَنْ خصَّ الأمكنة والأزمنة من عنده بعبادات ، لأجل هذا وأمثاله ، كان من جنس أهل الكتاب الذين جعلوا زمان أحوال المسيح مراسم وعبادات. كيوم الميلاد ويوم التعميد وغير ذلك من أحواله. وقد رأى عمر بن الخطاب جماعة يتبادرون مكاناً يصلّون فيه . فقال : ماهذا ؟ قالوا : مكان صلى فيه رسول الله ﷺ . فقال أتريدون أن تتخذوا آثار أنبيائكم مساجد ؟ إنما هلك من كان قبلكم بهذا . فمن أدركته فيه الصلاة فليصل ، وإلا فليمض . وقد قال بعض الناس : إن ليلة الإسراء فى حق النبى ﷺ أفضل من ليلة القدر . وليلة القدر بالنسبة إلى الأمة أفضل من ليلة الإسراء. فهذه

الليلة فى حق الأمة أفضل لهم . وليلة الإسراء فى حق رسول الله ﷺ أفضل له . انتهى . نقله الشمس ابن القيم (فى زاد المعاد) .

الثامن : قال الشمس ابن القيم فى (زاد المعاد) . اختلف الصحابة : هل رأى النبيّ ﷺ ربه تلك الليلة أم لا ؟ فصحّ عن ابن عباس أنه رأى ربه . وصحّ عنه أنه قال : رآه بفؤاده . وصحّ عن عائشة وابن مسعود إنكار ذلك وقالا : إن قوله تعالى[1] : (وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ) إنما هو جبريل . وصح عن أبى ذر أنه سأله : هل رأيت ربك ؟ قال : نور أنّى أراه . أى حال بينى وبين رؤيته النور . كما قال فى لفظ آخر : رأيت نوراً . وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمىّ اتفاق الصحابة على أنه لم يره . قال شيخ الإسلام ابن تيمية ، قدس الله روحه : وليس قول ابن عباس أنه رآه مناقضاً لهذا . ولا قوله رآه بفؤاده . وقد صح عنه أنه قال : رأيت ربى تبارك وتعالى . ولكن لم يكن هذا فى الإسراء ولكن كان فى المدينة لما احتبس عنهم فى صلاة الصبح . ثم أخبرهم عن رؤية ربه تبارك وتعالى تلك الليلة فى منامه . وعلى هذا بنى الإمام أحمد رحمه الله وقال : نعم ، رآه حقاً . فإن رؤيا الأنبياء حق ولابدّ . ولكن لم يقل أحمد إنه رآه بعينى رأسه . ومن حكى عنه ذلك فقد وهم عليه . ولكن قال مرة : رآه ، ومرة قال : رآه بفؤاده . فحكيت عنه روايتان وحكيت عنه الثالثة من تصرف بعض أصحابه أنه رآه بعينى رأسه . وهذه نصوص أحمد موجودة ليس فيها ذلك . وأما قول ابن عباس : رآه بفؤاده مرتين . فإن كان استناده إلى قوله تعالى[2] (مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ) ثم قال[3] (وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ) والظاهر أنه مستنده ، فقد صح عنه ﷺ أن هذا المرئىّ جبريل . رآه مرتين فى صورته التى خلق عليها . وقول ابن عباس هذا ، هو مستند الإمام أحمد فى قوله : رآه بفؤاده . والله أعلم .

---

(١) [٥٣ / النجم / ١٣و١٤] .
(٢) [٥٣ / النجم / ١١] .
(٣) [٥٣ / النجم / ١٣] .

التاسع : قال الجاحظ أبو الخطاب عمر بن دحية فى كتابه (التنوير فى مولد السراج المنير) ـ بعد ذكره حديث الإسراء من طريق أنس ـ وقد تواترت الروايات فى حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب وعلىّ وابن مسعود وأبى ذرّ ومالك بن صعصعة وأبى هريرة وأبى سعيدوابن عباس وشداد بن أوس وأبىّ بن كعب وعبد الرحمن بن قُرْط وأبى حبَّةَ وأبى ليلى الأنصاريين وعبد الله بن عمرو وجابر وحذيفة وبريدةوأبى أيوب وأبى أمامة وسمرة بن جندب وأبى الحمراء وصهيب الرومىّ وأم هانئ وعائشة وأسماء ابنتى أبى بكر الصديق رضى الله عنهم ، أجمعين ، منهم من ساقه بطوله ومنهم من اختصره ، على ما وقع فى المسانيد . وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة . فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون . وأعرض عنه الزنادقة والملحدون . انتهى .

وقد نقل الرازىّ عن بعض المعتزلة رده لجمل فيه ـ ساقها ـ صعب عليهم دركها . ولا إشكال فيها فى الحقيقة بحمده تعالى . ولكن هم وأمثالهم ممن ضعفت عنايتهم بفن الحديث وغلب عليهم فنّ المعقول . وَلَقَدْ فاتهم بسبب ذلك خير كثير . وليس فى الأحاديث الصحيحة ما يناقض المعقول أو الواقع ، بوجهٍ ما ، يعلم ذلك الراسخون ، وفوق كل ذى علم عليم .

وقد بقى ممن رواه من الصحابة . غير من تقدم ـ سهل بن سعد وعبد الله بن حوالة الأزدىّ وعبد الله بن أسعد بن زرارة وأبو الدرداء وعبد الله بن عمر . وأما من رواه من التابعين مرسلاً فكثير . منهم الحسن بن الحسين عليهما السلام وكعب ومحمد بن الحنفية وعروة وسفيان الثورىّ والوليد بن مسلم وعبد الرحمن بن أبى ليلى وآخرون . كما يعلم من مراجعة (الدرّ المنثور) للحافظ السيوطىّ .

وأما طرقه فى الصحيحين . فقال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : إنها تدور على أنس بن مالك مع اختلاف أصحابه عنه . فرواه قتادة عنه عن مالك بن صعصعة . وليس فى أحاديث المعراج أصحّ منه . ورواه الزهرىّ عنه عن أبى ذر . ورواه شريك بن أبى نمر وثابت البنانىّ عنه عن النبىّ ﷺ بلا واسطة . وفى سياق كل منهم عنهما ليس عند الآخر . اهـ . وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا)

[٣] (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ، إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا)

« وءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا * ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ، إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا » .

قال ابن كثير : لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبده محمد ﷺ ، عطف بذكر موسى عبده ورسوله وكليمه. فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما السلام ، وبين ذكر التوراة والقرآن . وقال الرازىّ : لما ذكر الله تعالى فى الآية الأولى إكرامه محمداً ﷺ بأن أسرى به ، ذكر فى هذه الآية أنه أكرم موسى عليه الصلاة والسلام قبله بالكتاب الذى آتاه. وقال الشهاب فى (العناية) : عقبت آية الإسراء بهذه ، استطراداً بجامع أن موسى عليه الصلاة والسلام أعطى التوراة بمسيره إلى الطور وهو بمنزلة معراجه . لأنه صح ثمة التكليم ، وشرّف باسم الكليم مدمجاً فيه تفاوت ما بين الكتابين ومن أنزلا عليه. وإن شئت فوازن بين (أسرى بعبده) . و (آتينا موسى) . وبين (هدى لبنى إسرائيل) . و(يهدى للتى هى أقوم) . و (الواو) استئنافية أوعاطفة على جملة (سبحان الذى أسرى) الخ لا على (أسرى)، لبعده وتكلفه . وضمير (وجعلناه) للكتاب أو لموسى و (لبنى إسرائيل) متعلق بـ (هدى) أو بـ(جعلناه) ، وهى تعليلية .

وقوله : (أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا) أى وليًّا ومعبوداً تكلون إليه أموركم . لأنه تعالى أنزل على كل نبىّ أرسله ، أن يعبده وحده لا شريك له ، وقد قرئ (أَلَّا يَتَّخِذُوا۟)

---

(١) [١٧ / الإسراء / ١] .

بالياء على الغيبة على حذف لام التعليل . والتقدير : جعلناه هدى لئلا يتخذوا . وقرئ بالتاء على الخطاب . وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن (أَنْ) بمعنى أى . وهى مفسرة لما تضمنه الكتاب من الأمر والنهى .

الثانى : أن (أن) زائدة ، أى قلنا : لاتتخذوا .

الثالث : أن (لا) زائدة ، والتقدير : مخافة أن تتخذوا . والوكيل الموكول إليه . أى المفوض إليه الأمور ، وهو الرب . فـ(فعيل) بمعنى مفعول . و (دون) بمعنى غير . و (من) زائدة . أو تبعيضية . وقوله : (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ) نصب على الاختصاص أو النداء . وفيه تهييج وتنبيه على المنة . والإنعام عليهم فى إنجاء آبائهم من الغرق بحملهم مع نوح فى السفينة . وإيماء إلى علة النهى . كأنه قيل : لاتشركوا به فإنه المنعم عليكم والمنجى لكم من الشدائد . وأنهم ضعفاء محتاجون إلى لطفه . وفى التعبير بـ(الذرية) الغالب إطلاقها على الأطفال والنساء ، مناسبة تامة لما ذكر . وذكر حملهم فى السفينة، للإشارة إلى أنه لم يكن لهم حينئذ وكيل يتكلون عليه سواه. وقوله (عَبْدًا شَكُورًا) أى لمعرفته بنعم الله واستعمالها على الوجه الذى ينبغى . وفيه إيماء بأن إنجاءه ومن معه كان ببركة شكره ، وحث للذرية على الاقتداء به . وقيل : إنه استطراد .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا)

[٥] (فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ، وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا)

« وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ » أى كتاب اللوح المحفوظ ، أى حكمنا فيه « لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ » يعنى أرض فلسطين بيت المقدس التى بارك الله حولها. والإفساد بالكفر والمعاصى .

قال السمين : فى تعدية (قضينا) بـ (إلى) تضمينه معنى أنفذنا . أى أنفذنا إليهم بالقضاء المحتوم . ومتعلق القضاء محذوف . أى بفسادهم . وقوله (لَتُفْسِدُنَّ) جواب قسم محذوف مؤكد لمعنى القضاء ، أو جواب لقوله : (وَقَضَيْنَآ) لأنه ضمن معنى القسم . ومنه قولهم (قضاء الله لأفعلن كذا) فيُجرون القضاء والقدر مجرى القسم ، فيتلقيان بما يتلقى به القسم . و (مرتين) أى إفسادتين . منصوب على أنه مصدر (لتفسدن) من غير لفظه . وعدل عنه ، لأن تثنية المصدر وجمعه ليس بمطرد : « وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا » أى ولتستكبرن وتتعظمُنَّ عن طاعة الله تعالى، أو لتظلمن الناس « فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا » أى موعود أولى المرتين ، أى وما وعدوا به فى المرة الأولى ، يعنى وعد المؤاخذة على أولى المفسدتين « بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ » أى ذوى قوة وبطش فى الحرب ، شديد « فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ » ترددوا خلال أماكنكم ومحالكم للقتل والسبى والنهب « وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا » أى مَقْضِيًّا لا صارف له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا)

[٧] (إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ، وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ، فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا)

[٨] (عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ، وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا . وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا)

« ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ » أى بعد هـذه المؤاخذة الشديدة ، رددنا ، عند توبتكم ، لكم الغلبة التى كانت لكم فى الأصل ، عليهم « وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا » أى قومًا ورهطاً . جمع (نفر) أو اسم جمع له . وأصله مَن ينفر مع الرجل من قومه . وقوله تعالى « إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا » بمثابة التعليل لما قبله . أى فعلنا ذلك لتعلموا أنكم إن أحسنتم توبتكم وأعمالكم ، أحسنتم لأنفسكم ، بإبقاء الغلبة لها والإمداد بالأموال والبنين وتكثير النفير (وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا)أى فإساءتكم ضارة لها بغلبة الأعداء وسلب الأموال والبنين والنفير « فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ » أى مؤاخذة المرة الآخرة وعقوبتها . وقوله تعالى « لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ » متعلق بجواب (إذا) المحذوف . أى بعثناهم ليسوءوا وجوهكم ، أى ذواتكم بالإذلال والقهر .

قال الشهاب: عديت المساءة إلى الوجوه، وإن كانت عليهم، لأن آثار الأعراض النفسانية إنما تظهر فى الوجه . كنضارة الوجه وإشراقه بالفرح . وكلوحه وسواده بالخوف والحزن .

فالوجه ، بمعنى الذات ، مجاز مرسل ، أو استعارة تبعية . وقيـــل : الوجوه بمعنى الرؤساء . وهو تـكلف . واختير هـذا على (لِيَسُوءُوكُمْ) مع أنه أخصر وأظهر ، إشارة إلى أنه جمع عليهم ألم النفس والبدن ، المدلول عليه بقوله (وَلِيُتَبِّرُواْ) . انتهى .

وقوله تعالى «وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ» أى الأقصى « كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ » أى يدمروا « مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا » أى عظيماً فظيعاً ، والتتبير : التدمير . وكل شىء كسرته وفتّته فقد تبرته . ثم أشار إلى أن فعله تعالى ليخلصوا توبتهم وأعمالهم بقوله « عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ » أى إذا أخلصتم للإنابة ، وأحسنتم الأعمال ، وأقمتم الـكتاب وما نزل إليكم ، لأنـكم علمتم من سنته تعـالى أنه لا ينزل بلاء إلا بذنب ولا يرفعه إلا بتوبة . ولذا قال « وَإِنْ عُدتُّمْ » أى بعد هذه التوبة والإنابة إلى الاستـكبار « عُدْنَا » أى إلى تسليط الأعداء وسلب الأموال والأولاد فى الدنيا .

« وَجَعَلْنَا » أى يوم القيامة « جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيرًا » أى محبساً وسجناً يحصرهم فى العذاب والحرمان عن الثواب .

قال الشهاب : إن كان ـ (حصيراً) ـ اسماً للمكان فهو جامد لايلزم تذكيره وتأنيثه . وإن كان بمعنى حاصراً أى محيطاً بهم ، وفعيل بمعنى فاعل ، يلزم مطابقته . فإما لأنه على النسب . كلابن وتامر . أو لحمله على (فعيل) بمعنى (مفعول) . أو لأن تأنيث جهنم غير حقيقىّ أو لتأويلها بمذكر . انتهى .

وقيل : حصيراً ، أى بساطا كما يبسط الحصير . مثل قوله تعالى[1] : (لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ) فهو تشبيه بليغ . والحصير بهذا المعنى بمعنى محصور لحصر بعض طاقاته على بعض . كما قاله الراغب .

---

(١) [٧ / الأعراف / ٤١] .

تنبيه :

روى أن بنى إسرائيل كان الأمر مستتبًّا لهم فى فلسطين إلى موت سليمان عليه السلام. فلما ملك ابنه بعده ، وذلك قبل المسيح بما ينيف على تسعمائة سنة، وقع من الاختلال فى عهده ما أفضى إلى تقريره عبادة الأوثان . فعوجل ، بعد خمس سنين من ملكه بأخذ ملك مصر بيتَ المقدس وسلب كنوز هيكلها (المسجد الأقصى) ونهب ما فيها . ولما ساء تصرفه تمرد عليه شعبه وخلعوا طاعته . فانقسمت مملكته إلى قسمين : أحدهما دعى مملكة يهوذا وهى المؤلفة من سبطى يهوذا وبنيامين ، بقيا خاضعين لابن سليمان .

وثانيهما : دعى مملكة إسرائيل وهى المؤلفة من بقية الأسباط العشرة . وكان أول ملك على مملكة إسرائيل رجل يقال له يربعام . خاف من رجوع رعاياه إلى طاعة ابن سليمان إذا صعدوا إلى أورشليم فى الأعياد الاحتفالية ليعبدوا الله فى الهيكل ويقربوا ذبائحهم هناك . فأقام فى مملكته عجلين من ذهب . وأمر رعيته بعبادتهما . ورتب لهم أعياداً احتفالية وكهنة. وقامت حروب هائلة بين ملوك هاتين الطائفتين . وكان يتخللهما من الملوك من ينزع عبادة الأوثان . إلا أنه لا يلبث الحال حتى يأتى ملك آخر فيعيد الوثنية . واستمرت مملكة إسرائيل نحواً من مائتين وخمسين سنة . وفى نهاية أمرهم عظمت خطيئاتهم فسلط عليهم ملك أَشُّور ، ففتح السامرة ـ بلدهم ـ وسباهم إلى أَشُّور وانقرضت مملكة العشرة الأسباط ولم يسمع ذكرهم بعد . ثم أرسل ملك أَشُّور قوماً من بلاده وأسكنهم مدن السامرة ليعمروها مع من بقى من أهلها . وأرسل معهم كاهنا من اليهود ليقيم لمن بقى طقوسهم . فعادوا إلى شركهم وعبادة الأوثان مع الله تعالى . وأما مملكة يهوذا فبقيت بعد انقراض مملكة إسرائيل ما ينيف على عشرين سنة . وفى أواخر أيامها قام فيها ملك شرير . فزحف إليه ملك بابل نبوخذناصر (بختنصر) فسبى قسماً من شعبه ، وكان السبى الأول .

ثم قام، بعد ذلك الملك الشرير، ابنُه. فسار على طريقة أبيه . فعاد إليه ملك بابل المذكور

واستأسره هو وآله ورؤساءه وقسما من الشعب . وسلب الهيكل . وكان هذا السبي الثانى بعد ثمانى سنين من الأول .

ثم قام فيهم ملك أَشَرُّ ممن تقدم ـ وهو آخر ملوكهم ـ وفى أيامه حاصر ملك بابل المذكور أيضا بيت المقدس ، وأسره إلى بابل ، وأحرق المدينة والهيكل ، وسبى كل شعب يهوذا ، ماعدا مساكين الأرض ، إلى بابل . وهذا هو السبي الثالث والأخير .

وهكذا انقرضت هـذه المملكة . وكانت إقامتهم فى بابل سبعين سنة . ثم أطلقوا من الأسر فعادوا إلى بيت المقدس . وجددوا عمارتها وقيام الهيكل . وبقيت اليهود تحت تسلط ملوك فارس إلى أن ظهر الإسكندر الكبير . وغلبت اليونان الفرس وجاء الإسكندر إلى سورية فدخل بنو إسرائيل تحت حكم اليونان . وبعـد وفاة الإسكندر انقسم ملكه إلى أربعة أقسام :

منها مملكة سورية ومصر . وكانت بينهما حروب متصلة . والإسرائيليون ، لما كانوا بينهما ، كانوا تارة تحت تملك مصر وأخرى تحت تسلط سورية . واتفق فى خلال ذلك أن رفض كثير من اليهود الديانة اليهودية ، وتمسكوا بديانة اليونانيين .

ثم استولى الرومانيين على فلسطين . وجرت حروب هائلة بينهم وبين اليهود ، أفضى الأمر إلى تسلط الرومانيين عليهم . وتملكوا بيت المقدس . وهدم تيطس ، أحد ملوكهم ، الهيكل إلى أساسه . وأحرق كتب اليهود وتشتت أمرهم ، ولم يبق لهم ملك ولا رئاسة بعده . وزعموا أن ذلك بعد رفع المسيح بنحو أربعين سنة . وزعموا أن الهيكل تراجع للعمارة ورمم ، إلى أن سارت هيلانة ، أم قسطنطين ، إلى القدس وبنت كنيسة على القبر ، الذى يزعم النصارى أنه قبر المسيح . وخربت الهيكل وأمرت أن تلقى فيه قمامات البلد وزبالته فصار موضع الصخرة مزبلة . وبقى كذلك حتى قدم عمر بن الخطاب رضى الله عنـه وفتح القدس . فأمر بتنظيفه وبنى فى قبلته مسجداً ، إلى أن ملك الوليد بن عبد الملك ، فجدد بناءه على أساسه القديم وبنى قبة الصخرة .

وتفصيل هذه الماجريات معروفة فى كتب التاريخ . ونحن لم نورد ما أوردناه على أنه تفسير للآية . لأنها بإيجازها غنية عنه ، وفى تفسيرنا لألفاظها كفاية فى فهمها ، إلا أن أكثر المفسرين تطرفوا لبعض ما جريات اليهود هنا ، فنقحنا منها أحسن ماحرره المؤرخون المتأخرون ، إيضاحاً لأفاعيلهم التى أشارت إليها الآيات الكريمة .

وقد قدمنا فى سورة يوسف ؛ أنه ليس فى القرآن شىء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار . وإنما هى الآيات فى العبر تجلت فى سياق الوقائع . ولذلك لم تذكر قصة بتفاصيلها . وإنما يذكر موضع العبرة فيها ، كما قال تعالى[1] (لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ) .

ثم بيّن تعالى مزية التنزيل الكريم التى فاق بها سائر ما أنزل ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا)

« إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ » أى للحالة التى هى أقوم الحالات وأسدّها . أو للملة ، أو للطريقة .

قال الزمخشرىّ : وأينما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذى تجده مع الحذف . لما فى إبهام الموصوف بحذفه ، من فخامة تفقد مع إيضاحه .

« وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا » أى يبشر المخلصين فى إيمانهم ، وهم الذين يعملون الصالحات كلها ، ويجتنبون السيئات ؛ أن لهم فى الدنيا والآخرة ثواباً وافراً .

---

(١) [١٢ / يوسف / ١١١].

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

[١١] (وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ، وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا)

« وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ » أى بالبعث والجزاء على الأعمال « أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » أى فى الآخرة ، وهو عذاب النار .

«وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ» أى مثل دعائه بالخير « وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا » قال أبو السعود : الآية بيان لحال المهدىّ إثر بيان حال الهادى . وإظهار لما بينهما من التباين . والمراد بالإنسان الجنس، أسند إليه حال بعض أفراده. أو حكى عنه حاله فى بعض أحيانه . فالمعنى ، على الأول : أن القرآن يدعو الإنسان إلى الخير الذى لا خير فوقه من الأجر الكبير. ويحذره من الشر الذى لا شر وراءه من العذاب الأليم، وهو ـ أى بعض منه وهو الكافر ـ يدعو لنفسه بما هو الشر من العذاب المذكور، إما بلسانه حقيقة كدأب من قال[1] (ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) ومَنْ قال[2] (فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ) إلى غير ذلك مما حكى عنهم ـ وإما بأعمالهم السيئة المفضية إليه ، الموجبة له مجازاً ، كما هو ديدن كلهم . وقوله (وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا) يعنى بالإنسان من أسند إليه الدعاء المذكور من أفراده. عجولاً يسارع إلى طلب ما يخطر بباله ، متعامياً عن ضرره . أو مبالغاً فى العجلة يستعجل العذاب وهو آتيه لا محالة . ففيه نوع تهكم به . وعلى تقدير حمل الدعاء على أعمالهم ، تحمل العجولية على اللج والتمادى فى استيجاب العذاب بتلك الأعمال .

وعلى الثانى : أن القرآن يدعو الإنسان إلى ما هو خير . وهو فى بعض أحيانه ، كما عند الغضب ، يدعه ويدعو الله تعالى لنفسه وأهله وماله بما هو شر. وكان الإنسان بحسب جبلّته عجولاً ضجراً لا يتأنى إلى أن يزول عنه مايعتريه . أو يدعو بما هو شر وهو يحسبه خيراً. وكان

(١) [٨ / الأنفال / ٣٢] . (٢) [٧ / الأعراف / ٧٠] .

الإنسان عجولاً غير متبصر لا يتدبر فى أموره حق التدبر ليتحقق ماهو خير حقيق بالدعاء به ، وما هو شر جدير بالاستعاذة منه . انتهى .

ثم أشار تعالى إلى بعض وجوه الهداية فى القرآن ، بالإرشاد إلى مسلك الاستدلال بالآيات والدلائل الآفاقية ، التى كل منها برهان نيِّرٌ لاريب فيه . ومنهاج بَيِّنٌ لايضل من ينتحيه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ، فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ، وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا)

« وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ » أى جعلناهما ، بهيئاتهما وتعاقبهما واختلافهما فى الطول والقصر، علامتين تدلان على أن لهما خالقا حكيما. « فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ » أى بجعلها مظلمة « وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً » أى مضيئة لتميز الأشياء المحسوسة. والإضافة فيهما إما بيانية ، أى الآية التى هى الليل، والآية التى هى النهار . وإما حقيقية. وآية الليل والنهار نيِّرَاهُمَا . والمراد بمحو القمر خلقه مطموس النور فى نفسه، أو نقص ما استفاده من الشمس شيئاً فشيئاً إلى المحاق . وبجعل الشمس مبصرة إبداعها مضيئة بالذات. ذات أشعة تبصر بها الأشياء؛ فالإسناد فى (مبصرة) مجازىّ إلى السبب العادىّ ، أو تجوز بعلاقة السبب. وقوله تعالى « لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ » متعلق بـ(جعلنا) أى لتطلبوا فى النهار رزقاً منه سبحانه، بالانتشار للمعاش والصناعات والأعمال والأسفار . « وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ » أى الحساب المتعلق بما فى ضمن السنين من الأشهر والليالى والأيام ، أو الحساب الجارى فى المعاملات ، كالبيوع والإجارات . وفى العبادات ، أى لتعرف مضىّ الآجال المضروبة لذلك . إذ لولاه لما علم أحد حسبان الأوقات ولتعطلت الأمور .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : هذه الآية أصل فى علم المواقيت والهيئة والتاريخ . وفى الآية لف ونشر غير مرتب . انتهى .

وقوله تعالى : «وَكُلَّ شَيْءٍ» أى مما تفتقرون إليه فى دينكم ودنياكم «فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا» أى بيناه فى القرآن بيانا بليغاً لا التباس معه . كقوله تعالى[1] « وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ » فظهر كونه هادياً للتى هى أقوم ظهورا بيّنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ، وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا)

[١٤] (ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)

[١٥] (مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا)

« وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ » أى ألزمناه عمله الصادر منه باختياره خيراً وشرًّا ، بحيث لا يفارقه أبداً . بل يلزمه لزوم الطوق فى العنق ، لا ينفكّ عنه بحال .

قال الطبرىّ[2] : المعنى : وكل إنسان ألزمناه ما قضى أنه عامله ، وهو صائر إليه من شقاء أو سعادة بعمله ،، فى عنقه لا يفارقه . وإنما قوله (أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ) مثل لما كانت العرب تتفاءل به أو تتشاءم من سوانح الطير وبوارحها . اهـ .

---

(١) [١٦ / النحل / ٨٩] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٥٠ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وذلك أن العرب كانوا إذا أرادوا الإقدام على عمل من الأعمال ؛ وأرادوا أن يعرفوا أن ذلك العمل يسوقهم إلى خيرٍ أو إلى شرٍّ ، اعتبروا أحوال الطير : وهو أنه يطير بنفسه أو يحتاج إلى إزعاجه . وإذا طار فهل يطير متيامناً أو متياسراً أو صاعداً إلى الجوّ ، إلى غير ذلك من الأحوال التى كانوا يعتبرونها ، ويستدلون بكل واحد منها على أحوال الخير والشر والسعادة والنحوسة . فلما كثر ذلك منهم ، سمّى الخير والشر بالطائر ، تسمية للشىء باسم لازمه .

قال الطبرىّ[1] : فأعلمهم جل ثناؤه ، أن كل إنسان منهم قد ألزمه ربه طائره فى عنقه ، نحساً كان ذلك الذى ألزمه من الطائر وشقاءً يورده سعيراً ، أو كان سعداً يورده جنان عدن. وإنما أضيف إلى العنق ولم يضف إلى اليد أو غيرها من أعضاء الجسد ، قيل لأن العنق هو موضع السمات وموضع القلائد والأطوقة وغير ذلك مما يزين أو يشين . فجرى كلام العرب بنسبة الأشياء اللازمة ببنى آدم وغيرهم من ذلك ، إلى أعناقهم . وكثر استعمالهم ذلك حتى أضافوا الأشياء اللازمة سائر الأبدان إلى الأعناق. كما أضافوا جنايات أعضاء الأبدان إلى اليد، فقالوا : ذلك بما كسبت يداه . وإن كان الذى جرّ عليه لسانه أو فرجه . فكذلك . قوله (أَلْزَمْنَاهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ) وحاصله ـ كما قاله الرازىّ ـ أن قوله : (فى عُنُقِهِ) كناية عن اللزوم. كما يقال (جعلت هذا فى عنقك) أى قلدتك هذا العمل وألزمتك الاحتفاظ به . ويقال (قلدتك كذا وطوقتك كذا) أى صرفته إليك وألزمته إياك . ومنه (قلده السلطان كذا) أى صارت الولاية ، فى لزومها له ، فى موضع القلادة ومكان الطوق . ومنه يقال (فلان يقلد فلاناً) أى يجعل ذلك الاعتقاد كالقلادة المربوطة على عنقه . وقوله تعالى « وَنُخْرِجُ لَهُۥ » أى نظهر له « يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ » أى البعث للجزاء على الأعمال « كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا » أى يجده مفتوحًا فيه حسناته وسيئاته . ويقال له « ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا » أى شهيداً بما عملت .

(١) انظر الصفحة رقم ٥٠ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

قال القاشانىّ : (كِتَٰبًا) هيكلا مصورًا يصوّر أعماله (يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا) لظهور تلك الهيئات فيه بالفعل مفصلة ، لامطويًّا كما كان عند كونها فيه بالقوة . يقال له (ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ) أى اقرأه قراءة المأمور الممتثل لأمر آمرٍ مطاع يأمره بالقراءة . أو تأمره القوى الملكوتية . سواء كان قارئًا أو غير قارئٍ . لأن الأعمال هناك ممثّلة بهيئاتها وصورها ، يعرفها كل أحد . لاعلى سبيل الكتابة بالحروف فلا يعرفها الأمىّ (كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) لأن نفسه تشاهد ما فعلته لازمًا إياها ، نصب عينها ، مفصلًا لا يمكنها الإنكار .

وقوله تعالى « مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ » قال أبو السعود : فذلكة لما تقدم من بيان كون القرآن هادياً لأقوم الطرائق، ولزوم الأعمال لأصحابها. أى من اهتدى بهدايته، وعمل بما فيه تضاعيفه من الأحكام ، وانتهى عما نهاه عنه ، فإنما تعود منفعة اهتدائه إلى نفسه، لا تتخطاه إلى غيره ممن لا يهتدى « وَمَن ضَلَّ » أى عن الطريقة التى يهديه إليها « فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا » أى وبال ضلاله عليها ، لا على من عداه ممن لم يباشره . فقوله «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ » مؤكد لماقبله للاهتمام به.

قال أبو السعود : أى لا تحمل نفس حاملة للوزر ، وزر نفس أخرى ، حتى يمكن تخلص النفس الثانية عن وزرها . ويختل ما بين العامل وعمله من التلازم . بل إنما تحمل كل منهما وزرها . وهذا تحقيق لمعنى قوله عز وجل (وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ) وأما ما يدل عليه قوله تعالى[1] (مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ، وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا). وقوله تعالى[2] (لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ)من حمل الغير وزر الغير، وانتفاعه بحسنته، وتضرره بسيئته ، فهو فى الحقيقة انتفاع بحسنة نفسه ، وتضرر بسيئته . فإن جزاء الحسنة والسيئة اللتين يعملهما العامل لازم له . وإنما الذى يصل إلى من يشفع، جزاء شفاعته ، لاجزاء

---

(١) [٤ / النساء / ٨٥] . (٢) [١٦ / النحل / ٢٥] .

أصل الحسنة والسيئة . وكذلك جزاء الضلال مقصور على الضالين. وما يحمله المضلون، إنما هو جزاء الإضلال لا جزاء الضلال .

وإنما خصّ التأكيد بالجملة الثانية قطعاً للأطماع الفارغة ، حيث كانوا يزعمون أنهم إن لم يكونوا على الحق ، فالتبعة على أسلافهم الذين قلدوهم . انتهى .

وقوله تعالى « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا » بيان للعناية الربانية ، إثر بيان اختصاص آثار الهداية والضلال بأصحابها ، وعدم حرمان المهتدى من ثمرات هدايته، وعدم مؤاخذة النفس بجناية غيرها . أى : وما صح وما استقام منا ، بل استحال فى سنّتنا المبنية على الحكم البالغة ، أن نعذّب قوماً حتى نبعث إليهم رسولًا يهديهم إلى الحق ، ويردعهم عن الضلال ، لإقامة الحجة وقطعاً للعذر . والعذاب أعمّ من الدنيوىّ والأخروىّ ، لقوله تعالى[1] (وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ) . وقال تعالى[2] (كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ) وكذا قوله[3] (وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ، حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا، قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ) وقال تعالى[4] (وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ، أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ، فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى لا يعذب قوماً عذاب استئصال ، ولا يدخل أحداً النار إلا بعد إرسال الرسل . قال قتادة :

---

(١) [٢٠ / طه / ١٣٤] . (٢) [٦٧ / الملك / ٨و٩] .
(٣) [٣٩ / الزمر / ٧١] . (٤) [٣٥ / فاطر / ٣٧] .

إن الله تعالى لا يعذب أحداً حتى يتقدم إليه بخبر أو بيّنة . ولا يعذب أحـداً إلا بذنبه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا)

« وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا » بيان لوقوع التعذيب بعد الرسالة . وأنه إنمـا كان للتمرد على الرسل والتنكب عن منهجهم . وقد تدل الآية على أن التعذيب المتقدم مراد به الهلاك الدنيوىّ لانحصارها فيه . والمعنى : إذا أردنا أن نعذب قوماً عذاب استئصال (أمرنا مترفيها) يعنى متنعميها، بالطاعة على لسان الرسول المبعوث إليهم (ففسقوا فيها) بمخالفة أمره تعالى والخروج عن طاعته (فحق عليها القول) فوجب عليها ، بمعصيتهم وفسقهم وطغيانهم، وعيد الله الذى أوعد من كفر به وخالف رسله ، من الهلاك بعـد الإعذار والإنذار بالرسل والحجج . (فدمرناها تدميراً) أى فخربناها تخريباً لا يكتنه كنهه ولا يوصف. وأهلكنا من كان فيها من أهلها إهلاكا هائلا. كما جرى لبيت المقدس، لما انحرف اليهود عن شرعتهم، على ما قدمنا بيانه. وإنما خص المترفين ، وهم الجبارون والملوك والرؤساء ، بالذكر مع توجه الأمر إلى الكل ، لأنهم الأصل فى الخطاب والباقى تبع لهم . ولأن توجه الأمر إليهم آكد . وإنمـا حذف مفعول (أمرنا) لظهور أن المراد به الحق والخير . لاسيما بعد ذكر هداية القرآن لما يهدى إليه . وفى إيثار (القرية) على أهلها زيادة تهويل وتفظيع ، إشارة إلى التنكيل بهم بهدم صروحهم ودورهم ، وطمس أثرهم ، وهو أوجع للقلب وأنكى للعدوّ . ولذلك أتى إثره بالمصدر المؤكد فقـال : (تَدْمِيراً) أى كليًّا بحيث لم يبق لهم زرع أو ضرع .

قال القاشانىّ : إن لكل شىء فى الدنيا زوالًا . وزواله بحصول استعداد يقتضى ذلك . وكما أن زوال البدن بزوال الاعتدال ، وحصول انحراف يبعده عن بقائه وثباته ، فكذلك هلاك المدينة وزوالها بحدوث انحراف فيها عن الجادة المستقيمة التى هى صراط الله وهى الشريعة الحافظة للنظام . فإذا جاء وقت إهلاك قرية ، فلابد من استحقاقها للإهلاك . وذلك بالفسق والخروج عن طاعة الله . فلما تعلقت إرادته بإهلاكها ، تقدمه أولا بالضرورة فسق مترفيها من أصحاب الترف والتنعم بطراً وأشراً بنعمة الله ، واستعمالًا لها فيما لاينبغى . وذلك بأمر من الله وقدرٍ منه ، لشقاوة كانت تلزم استعداداتهم . وحينئذ وجب إهلاكهم .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ، وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا)

« وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ » أى وكثيراً ما أهلكنا من الأمم الكافرة من بعد زمن نوح ، كعاد وثمود وفرعون ، ممن قصّت أنباؤهم فى القرآن العظيم ومن لم تقص . و (القرون) جمع قرن يطلق على الزمن المعين وعلى أهله المقترنين فيه . وعلى كل أمة هلكت فلم يبق منها أحد . وخص (نوح) ولم يقل (من بعد آدم) لأنه أول رسول آذاه قومه فاستأصلهم العذاب . ففيه تهديد وإنذار للمشركين .

« وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا » أى لايخفى عليه شىء منها . فيدرك سرها وعلنها وسيجازى عليها .

والآية تدل ـ كما قال الزمخشرىّ : ـ على أن الذنوب هى أسباب الهلكة ، وذلك لأنه لما عقب إهلاكهم بعلمه بالذنوب علماً أتمّ ، دل على أنه جازاهم بها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا)

[١٩] (وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا)

« مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا » .

أى من كان طلبه الدنيا العاجلة ، ولها يعمل ويسعى ، وإياها يبتغى . لايوقن بمعاد ولا يرجو ثواباً ولا عقاباً من ربه على عمله ، عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد . أى مانشاؤه من بسط الدنيا عليه أو تقتيرها لمن أراد الله أن يفعل به ذلك . أو من إهلاكه بما يشاء تعالى من عقوباته المعجلة . ثم يصلى جهنم فى الآخرة مذموماً على قلة شكره لمولاه ، وسوء صنيعه فيما سلف له . مدحوراً مطروداً من الرحمة ، مبعداً مقصيًّا فى النار . ومن أراد الآخرة وإياها طلب ، ولها عمل عملها الذى هو طاعة الله وما يرضيه عنه ، فأولئك كان عملهم مشكوراً بحسن الجزاء .

تنبيه :

قال القفال رحمه الله : هذه الآية داخلة فى معنى قوله (وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ) فالآية الأولى تشير إلى من جعل طائر نفسه شؤماً . والثانية لمن جعله يمناً وخيراً . وفى قوله تعالى : (وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا) أى مايحق ويليق بها من الأعمال الصالحة ، تبيين لقوله : (وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأٓخِرَةَ) بأن إرادتها هو بالسعى والنصب فى مغالبة الباطل وإعلاء شأن الحق مع التلبس بالإيمان الصحيح ، بفعل المأمور واجتناب المنهىّ عنه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ، وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا)

[٢١] (ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ، وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا)

[٢٢] (لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا)

« كُلًّا نُّمِدُّ » أى كل واحد من الفريقين. وقوله : « هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ » بدل من (كلا) « مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ » أى فضله . فيرزقهما جميعاً من رزقه إلى بلوغهما الأمد واستيفائهما الأجل ، ما كتب لهما . ثم تختلف بهما الأحوال بعد الممات ، وتفترق بهما بعد الورود المصادرُ . ففريقُ مريدى العاجلة، إلى جهنم مصدرهم. وفريقُ مريدى الآخرة، إلى الجنة مآبهم « وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا » أى ممنوعاً لا يمنعه من عاصٍ لعصيانه . والجملة كالتعليل لشمول الإمداد للفريقين « ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ » أى فى الرزق فى الدنيا « وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا » لأن فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ثم أشار تعالى إلى ما به تنال درجات الآخرة من البراءة من الشرك ، ومن الاعتصام بالإيمان وشعبه ، بقوله « لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا » أى لا تجعل معه شريكا فى عبادته فتصير مذمومًا ملومًا على الشرك ، مخذولًا من الله ، يكلك إلى ذاك الشريك ولا ينصرك (وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ)[1] .

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا)

[٢٤] (وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا)

«وَقَضَىٰ رَبُّكَ» أى أمر أمرا مقطوعا به «أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا» أى : وبأن تحسنوا بالوالدين إحسانا . قال القاشانىّ : قرن سبحانه وتعالى إحسان الوالدين بالتوحيد وتخصيصه بالعبادة ، لكونهما مناسبين للحضرة الربوبية ، لتربيتهما إياك عاجزا صغيرا ضعيفا لا قدرة لك ولا حراك بك . وهما أول مظهر ظهر فيه آثار صفات الله تعالى من الإيجاد والربوبية . والرحمة والرأفة بالنسبة إليك ، ومع ذلك فإنهما محتاجان إلى قضاء حقوقهما ، والله غنىّ عن ذلك . فأهم الواجبات بعد التوحيد ، إذًا ، إكرامهما والقيام بحقوقهما ما أمكن «إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا* وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا» فى هذا من المبالغة فى إكرام الوالدين وبرهما مالا يخفى . و(إِمَّا) هى (إن) الشرطية زيدت عليها (ما) تأكيداً لها . و(أَحَدُهُمَآ) فاعل (يبلغن) و (كِلَاهُمَا) عطف عليه . ومعنى (عِندَكَ) هو أن يكبرا ويعجزا ، وكانا كلًّا على ولدهما ، لا كافل لهما غيره ، فهما عنده فى بيته وكنفه . وذلك أشق عليه وأشد احتمالًا وصبراً . وربما تولى منهما ما كانا يتوليان منه ، فى حال الطفولة . فهو مأمور بأن يستعمل معهما وطأة الخلق ولين الجانب والاحتمال . حتى لا يقول لهما ، إذا أضجره مايستقذر منهما، أو يستثقل من مؤنهما: (أف) فضلا عما يزيد عليه . أفاده الزمخشرىّ .

وقوله (وَلَا تَنْهَرْهُمَا) أى تزجرهما عما لا يعجبك ، بغلظة (وَقُل لَّهُمَا) بدل التأفيف والنهر (قَوْلًا كَرِيمًا) أى حسناً كما يقتضيه حسن الأدب معهما . ومعنى قوله (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ) تَذَلَّلْ لهما وتواضع . وفيه استعارة مكنية وتخييلية . فشبه الذل بطائر تشبيها مضمرا ، وأثبت له الجناح تخييلا ، والخفض ترشيحاً . و (خفضه) ما يفعله إذا ضم أفراخه للتربية . أو استعارة تصريحية فى المفرد وهو الجناح ، والخفض ترشيح . و (الجناح) الجانب كما يقال (جناحا العسكر) وخفضه مجاز. كما يقال (ليّن الجانب) و (منخفض الجانب) وإضافة الجناح إلى الذل للبيان. لأنه صفة مبيّنة. أى جناحك الذليل . وفيه مبالغة لأنه وصف بالمصدر . فكأنه جعل الجناح عين الذل . أو التركيب استعارة تمثيلية . فيكون مثلا لغاية التواضع . وسر ذكر الجناح وخفضه ، تصوير الذل كأنه مشاهد محسوس . و (مِن) من قوله تعالى (مِنَ الرَّحْمَةِ) ابتدائية على سبيل التعليل . أى من فرط رحمتك لهما ، وعطفك عليهما ، لكبرهما وافتقارهما اليوم ، إلى من كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس . وافتقارُ المرء إلى من كان مفتقراً له ، غايةٌ فى الضراعة والمسكنة . فيرحمه أشد رحمة . كما قال الخفاجىّ :

يا من أتى يسأل عن فاقتى ، ما حال من يسأل من سائله ؟
ما ذلة السلطان إلا إذا أصبح محتاجاً إلى عامله .

وقوله تعالى (وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) أى رب ! تعطف عليهما برحمتك ومغفرتك، كما تعطفا علىّ فى صغرى، فرحمانى وربيانى صغيراً حتى استقللت بنفسى، واستغنيت عنهما.

قال الزمخشرىّ : أى لا تكتف برحمتك عليهما التى لا بقاء لها ، وادْعُ الله بأن يرحمهما رحمته الباقية . واجعل ذلك جزاء لرحمتهما عليك فى صغرك وتربيتهما لك. والكاف للتعليل. أى لأجل تربيتهما لى .

قال الطيبىّ : الكاف لتأكيد الوجود . كأنه قيل : رب ارحمهما رحمة محققة مكشوفة لا ريب فيها كقوله[1] (مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ) . وهو وجه حسن .

(١) [٥١ / الذاريات / ٢٣] .

تنبيه :

استحب بعض السلف أن يدعو المرء لوالديه فى أواخر التشهد قبيل السلام ، لأنه وقت فاضل . وقد جمعتُ من الأدعية المأثورة للوالدين المتوفيين أو أحدهما ، جملة ضممتها لكتابى (الأوراد المأثورة) . لا أزال أدعو لهما بها فى السحر أو بين أذان الفجر وإقامة صلاته ، لما أرى من مزية هذا الوقت على غيره . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٥] (رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ، إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا)

[٢٦] (وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا)

[٢٧] (إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ، وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا)

« رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ » أى ضمائركم من قصد البر إلى الوالدين والعقوق « إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ » أى قاصدين للصلاح والبرّ دون العقوق « فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ » أى التوابين الرجّاعين إليه تعالى بالندم عما فرط منهم ، والاستقامة على المأمور « غَفُورًا » أى لهم ما اكتسبوا . ولا يخفى ما فى صدر الآية من الوعد لمن أضمر البرّ . والوعيد لمن أضمر الكراهة والاستثقال والعقوق .

قيل : الآية استئناف يقتضيه مقام التأكيد والتشديد . كأنه قيل : كيف يقوم بحقهما وقد تبدر بوادر ؟ فقيل : إذا بنيتم الأمر على الأساس ، وكان المستمر ذلك ، ثم اتفقت بادرة من غير قصد إلى المساءة ، فلطف الله يحجز دون عذابه . ويجوز ـ كما قال الزمخشرىّ ـ أن يكون هذا عامًّا لكل من فرطت منه جناية ثم تاب منها . ويندرج تحته الجانى على أبويه ، التائب من جنايته ، لوروده على أثره . ثم وصّى تعالى بغير الوالدين من الأقارب ، بعد الوصية

بهما ، بقوله سبحانه : « وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ » أى من صلته وحسن المعاشرة، والبرّ له بالإنفاق عليه .

قال المهايمىّ : لم يقل (القريب) لأن المطلق ينصرف إلى الكامل. والإضافة ، لما كانت لأدنى الملابسة، صدق (ذو القربى) على كل من له قرابة ما . « وَٱلْمِسْكِينَ » أى الفقير من الأباعد . وفى الأقارب مع الصدقة صلة الرحم . « وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ » أى المسافر المنقطع به . أى أعنه وقوّه على قطع سفره . ويدخل فيه مايعطاه من حمولة أو معونة أو ضيافة . فإن ذلك كله من حقه « وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا » أى بوجه من الوجوه ، بالإنفاق فى محرم أو مكروه ، أو على من لايستحق، فتحسبه إحساناً إلى نفسك أو غيرك. أفاده المهايمىّ. وفى (الكشاف): كانت الجاهلية تنحر إبلها وتتياسر عليها ، وتبذر أموالها فى الفخر والسمعة ، وتذكر ذلك فى أشعارها . فأمر الله بالنفقة فى وجوهها ، مما يقرب منه ويزلف .

« إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ » أى أمثالهم فى كفران نعمة المال بصرفه فيما لا ينبغى . وهذا غاية المذمة لأنه لاشرّ من الشيطان . أو هم إخوانهم أتباعهم فى المصادقة والإطاعة . كما يطيع الصديق صديقه والتابع متبوعه ، أو هم قرناؤهم فى النار على سبيل الوعيد . والجملة تعليل المنهى عنه عن التبذير، ببيان أنه يجعل صاحبه مقروناً معهم. وقوله « وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا » من تتمة التعليل. قال أبو السعود: أى مبالغاً فى كفران نعمته تعالى . لأن شأنه أن يصرف جميع ما أعطاه الله تعالى من القُوَى ، إلى غير ما خلقت له من أنواع المعاصى ، والإفساد فى الأرض، وإضلال الناس ، وحملهم على الكفر بالله وكفران نعمه الفائضة عليهم ، وصرفها إلى غير ما أمر الله تعالى به . وتخصيص هذا الوصف بالذكر ، من بين سائر أوصافه القبيحة ، للإيذان بأن التبذير ، الذى هو عبارة عن صرف نعم الله تعالى إلى غير مصرفها ، من باب الكفران ، المقابل للشكر الذى هو عبارة عن صرفها إلى ما خلقت هى له . والتعرض لوصف الربوبية للإشعار بكمال عتوّه . فإن

كفران نعمة الربّ ، مع كون الربوبية من أقوى الدواعى إلى شكرها ، غاية الكفران ونهاية الضلال والطغيان . انتهى .

وقد استدل بالآية من منع إعطاء المال كله فى سبيل الخير، ومن منع الصدقة بكل ماله.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا)

« وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا »

أى وإن أعرضت عن ذوى القربى والمسكين وابن السبيل ، حياء من الردّ ، لانتظار رزق من الله ترجوه أن يأتيك فتعطيه ، فلا تؤيسهم وقل لهم قولًا ليناً سهلًا، وعدهم وعداً جميلًا .

قال فى (الكشف) : (ابتغاء) أقيم مقام فقدانه . وفيه لطف . فكأن ذلك الإعراض لأجل السعى لهم . وهو من وضع المسبب موضع السبب . فإن الفقد سبب للابتغاء .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى هذه الآية الأمر بالقول اللين عند عدم وجود مايعطى منه . وفسّره ابن زيد بالدعاء . والحسن وابن عباس بالعدة . انتهى .

وظاهر ، أن القول الميسور يشمل الكل . وذهب المهايمىّ إلى أن الآية فى منعهم خوفا من أن يصرفوه فيما لاينبغى . قال : أى وإن تحقق إعراضك عمن تريد الإحسان إليهم ، طلب رحمة من ربك فى المنع عنهم لئلا يقعوا فى التبذير ، بصرف المعطى إلى شرب الخمر أو الزنى ، لما عرفت من عاداتهم ، فقل لهم فى الدفع قولا سهلًا عليهم ، إحساناً إليهم بدل العطاء . انتهى .

ولم أره لغيره . والنظم الكريم يحتمله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا)

« وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ » أى لا تمسك يدك عن النفقة والعطية لمن له حق ممن تقدم ، بمنزلة المشدودة يده إلى عنقه ، الذى لا يقدر على الأخذ بها والإعطاء « وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ » أى بالتبذير والسرف . قال ابن كثير : أى لا تسرف فى الإنفاق فتعطى غير طاقتك وتخرج أكثر من دخلك « فَتَقْعُدَ » أى فتبقى « مَلُوماً » يلومك الفقراء والقرابة « مَّحْسُورًا » أى نادماً ، من (الحسرة) . أو منقطعا بك لا شىء عندك من (حسره السفر) إذا بلغ منه الجهد وأثر فيه .

وفى النهيين استعارتان تمثيليتان . شبه فى الأولى فعل الشحيح فى منعه ، بمن يده مغلولة لعنقه ، بحيث لا يقدر على مدّها .

وفى الثانية ، شبه السرف ببسط الكف بحيث لا تحفظ شيئاً . وهو ظاهر . وجعل ابن كثير قوله تعالى (فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُورًا) من باب اللف والنشر المرتب . قال : أى فتقعد ، إن بخلت ، ملوماً يلومك الناس ويذمونك . ويستغنون عنك كما قال زهير[1] فى المعلقة .

ومَنْ كانَ ذَا مالٍ فيبخَلْ بمالِه ... على قومِهِ يُسْتَغْنَ عنه ويُذْمَمِ

---

(١) الرواية فى (المعلقات) و (شرح ديوان زهير) هكذا :

* ومَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيَبْخَلْ بفَضْلِهِ *

وقال فى الحاشية (من شرح الديوان) : وفى شرح الأعلم :

ومَنْ يَكُ ذَا مَالٍ فَيَبْخَلْ بمَالِهِ *

وهو البيت الخمسون من معلقته التى مطلعها :

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لم تَكَلَّمِ ... بحَوْمانةِ الدرَّاجِ فالمُتَثَلَّمِ

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك، قعدت بلاشيء تنفقه، فتكون كالحسير. وهى الدابة التى عجزت عن السير، فوقفت ضعفا وعجزاً.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٠] (إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا)

« إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ» أى يوسعه ويضيّقه، حسب مشيئته وحكمته « إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا » أى خبيراً ببواطنهم، بصيراً بظواهرهم.

قال المهايمىّ: ولما وجب إيتاء ذى القربى والمسكين وابن السبيل، لحفظ أرواحهم، فالأولاد بحفظ الأرواح أولى، لذلك قال تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣١] (وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ، نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا)

« وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ » نهى لهم عما كانوا يفعلونه فى الجاهلية من قتلهم أولادهم. وهو وأدهم بناتهم. أى دفنهن فى الحياة. كانوا يئدونهن خشية الفاقة وهى الإملاق والفقر، بالإنفاق عليهم إذا كبروا. فنهاهم الله وضمن لهم أرزاقهم بقوله (نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ) أى نحن المختصون بإعطاء رزقهم فى الصغر والكبر، وقوله تعالى (وَإِيَّاكُمْ) أى الآن بإغنائكم. وقوله تعالى « إِنَّ قَتْلَهُمْ » أى للإملاق الحاضر والخشية فى المستقبل « كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا » أى لإفضائه إلى تخريب العالم. وأى خطء أكبر من ذلك.

تنبيه :

دل قوله تعالى (خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ) على أن ذلك هو الحامل لهم على الوأد ، لا خوف العار كما زعموا . قال المبرّد فى (الكامل) : كانت العرب فى الجاهلية تئد البنات. ولم يكن هذا فى جميعها . إنما كان فى تميم بن مرّ ، وقيس ، وأسد ، وهذيل ، وبكر بن وائل .

ثم قال : ودل على مامن أجله قتلوا البنات، فقال (وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ) وقال[٢] (وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ) فهذا خبر بيّن أنّ ذلك للحاجة . وقد روى بعضهم أنهم إنما فعلوا ذلك أنفة . وذكر أبو عبيدة معمر بن المثنّى؛ أن تميماً منعت النعمان الإتاوة . فوجه إليهم أخاه الريان بن المنذر ، فاستاق النعم وسبى الذراريّ . فوفدت إليه بنو تميم . فلما رآها أحب البقيا . فأناب القوم وسألوه النساء. فقال النعمان : كل امرأة اختارت أباها ردت إليه، وإن اختارت صاحبها تركت عليه. فكلهن اختار أباها إلا ابنة القيس بن عاصم فإنها اختارت صاحبها عمرو بن المشمرج . فنذر قيس ألا تولد له ابنة إلا قتلها. فهذا شىء يعتلّ به من وأد، ويقول: فعلناه أنفة ، وقد أكذب ذلك بما أنزل الله تعالى فى القرآن.

وقال ابن عباس رحمه الله (فى تأويل هذه الآية) : وكانوا لا يورّثون ولا يتخذون إلا من طاعن بالرمح ومنع الحريم ، يريد الذكران . والخطء كالإثم ، لفظاً ومعنى . ولما نهى عن قتل الأولاد ، نهى عن قطع النسل بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ، إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا)

« وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً » أى فعلة قبيحة متناهية فى القبح . توجب

(١) [٦٠ / الممتحنة / ١٢] .

النفرة عن صاحبه ، والتفرقة بين الناس « وَسَآءَ سَبِيلًا » أى بئس طريقا طريقه. فإنه غصب الأبضاع المؤدى إلى اختلاف أمر الأنساب ، وهيجان الفتن غصباً من غير سبب . والسبب ممكن . وهو الصهر الذى شرعه الله ، وقال المهايمىّ : (سَآءَ سَبِيلًا) لقضاء الشهوة التى خلقت لطلب النسل ، بتضييعه . ثم ذكر ما هو أعظم فى التنفير والتفرقة ، فقال تعالى مجده :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ، وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ، إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا)

« وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ » أى قتلها وهى نفس الإنسان « إِلَّا بِٱلْحَقِّ » أى إلا بسبب الحق ، فيتعلق بـ (لا تقتلوا) أو حال من فاعل (لا تقتلوا) أو من مفعوله . وجوز تعلقه بـ(حرّم). أى حرّم قتلها إلا بالحق . وحقها أن لا تقتل إلا بكفر بعد إسلام، أو زنى بعد إحصان، أو قوداً بنفس «وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا » أى ومن قتل بغير حق ، مما تقدم ، فقد جعلنا لوليّه ، الذى بينه وبينه قرابة توجب المطالبة بدمه . (سُلْطَٰنًا) أى تسلطاً على القاتل فى الاقتصاص منه . أو حجة يثب بها عليه ، وحينئذ فلا يسرف فى القتل . أى فلا يقتل غير القاتل ، ولا اثنين والقاتلُ واحد ، كعادة الجاهلية . كان إذا قتل منهم واحد قتلوا به جماعة . وقوله : (إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا) تعليل للنهى . والضمير للولىّ . يعنى : حسبه أن الله قد نصره بأن أوجب له القصاص ، فلا يستزد على ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ، إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا)

« وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » أى لاتتصرفوا فى ماله إلا بالطريقة التى هى أحسن ، وهى حفظه عليه وتثميره وإصلاحه . وقوله تعالى : « حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ » غاية لجواز التصرف على الوجه الحسن. أى حتى يبلغ وقت اشتداده فى العقل وتدبير ماله وصلاح حاله فى دينه « وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ » أى العقد الذى تعاقدون به الناس فى الصلح بين أهل الحرب والإسلام ، وفيما بينكم أيضا. والبيوع والأشربة والإجارات ونحوها « إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا » أى مطلوباً. يطلب من المعاهد اثبات عليه، وعدم إضاعته. أو: صاحبه مسئول عن نقضه إياه . والمعنى : لا تنقضوا العهود الجائزة بينكم وبين من عاهدتموهم ، فتخفروها وتغدروا بمن أعطيتموه إياها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا)

« وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ » أى أتموه إذا كلتم لغيركم ولا تبخسوه « وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ » أى بالميزان السوىّ ؛ بلا اعوجاج ولا خديعة « ذَٰلِكَ خَيْرٌ » أى لكم فى معاشكم لانتظام أموركم بالعدل ، وإيفاء الحقوق أربابها « وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » أى عاقبة ومآلًا ؛ إذ ليس معه مظلمة يطالب بها يوم القيامة . ثم أمر تعالى برعاية القسطاس المعنوىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ، إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا)

[٣٧] (وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا)

« وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ » أى لاتتبعه فى قول أو فعل ، تسنده إلى سمع أو بصر أو عقل . من (قفا أثره) إذا تبعه .

قال الزمخشرىّ : والمراد النهى عن أن يقول الرجل مالايعلم ، وإن يعمل بما لايعلم . ويدخل فيه النهى عن التقليد دخولًا ظاهراً ، لأنه اتباع لمالا يعلم صحته من فساده . انتهى.

ولا يخفى ما يندرج تحت هذه الآية من أنواع كثيرة . كمذاهب الجاهلية فى الإلهيات والتحريم والتحليل. وكشهادة الزور والقذف ورمى المحصنات الغافلات والكذب وماشا كلها « إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا » أى كان صاحبها مَسْـُٔولًا عما نسب إليها يوم القيامة . أو تُسأل نفس الأعضاء لتشهد على صاحبها .

قال المهايمىّ : قدم السمع ، لأن أكثر ما ينسب الناس أقوالهم إليه . وأخر الفؤاد ، لأنه منتهى الحواس . ولم يذكر بقيتها لأنه لايخالفها قول أو فعل .

« وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا » أى مختالًا . أى مشية المعجب المتكبر. إذ لا يفيدك قوة ولا علوًّا، كما قال سبحانه « إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ » أى لن تجعل فيها خرقاً بدوسك لها ، وشدة وطأتك « وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا » أى لن تحاذيها بتطاولك ومدّ قامتك، كما يفعله المختال تكلفاً . وفى هذا تهكم بالمختال ، وإيذان بأن ذلك مفاخرة مع الأرض وبعض أجزائها .

قال الناصر : وفى هذا التهكم والتقريع لمن يعتاد هذه المشية، كفاية فى الانزجار عنها. ولقد حفظ الله عوامَّ زماننا عن هذه المشية . وتورط فيها قراؤنا وفقهاؤنا . بينا أحدهم قد عرف مسألتين أو أجلس بين يديه طالبين ، أو شدّ طرفا من رياسة الدنيا ، إذا هو يتبختر فى مشيه ، ويترجع ولا يرى أنه يطاول الجبال ، ولكن يحك بيافوخه عنان السماء ، كأنهم يمرون عليها وهم عنها معرضون . وماذا يفيده أن يقرأ القرآن أو يُقْرَأ عليه، وقلبه عن تدبره على مراحل ، والله ولى التوفيق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا)

[٣٩] (ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ، وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا)

« كُلُّ ذَٰلِكَ » أى المنهىّ عنه من قوله (وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ) إلى هذه الغاية « كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا » قال المهايمىّ : أما الشرك فلإخلاله بالكمال المطلق الذى لا يتصور مع الشرك . وأما عبادة الغير فلما فيها من تعظيمه المخصوص بذى الكمال المطلق فهو فى معنى الشرك. وأما العقوق فلأنه كفران نعمة الأبوين فى التربية، أحوج ما يكون المرء إليها . ومنع الحقوق بالبخل تفريط . والتبذير والبسط إفراط . وهما مذمومان ، والذميم مكروه . والقتل يمنع الحكمة من بلوغها إلى كمالها . والزنى وإتلاف مال اليتيم فى معناه . ونقض العهد مخلّ بنظام العالم . وكذا اقتفاء ما لا يعلم . والتكبر من خواص الحق. وعادة الملوك كراهة أن يأخذ أحد من خواصه شيئاً . « ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ » أى مما يحكم العقل بصحته ، وتصلح النفس بأسوته .

قال المهايمىّ : أى من العلم المحكم الذى لا يتغير بشبهة « وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا

ءاخَرَ » كرره للتنبيه على أن التوحيد مبدأ الأمر ومنتهاه . وأنه رأس كل حكمة وملاكها . ومَنْ عَدِمَهُ لم ينفعه علومه وحكمه .

قال أبو السعود : وقد رتب عليه ما هو عائدة الإشراك أوَّلًا حيث قيل (فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولًا » ورتب عليه ههنا نتيجته فى العقبى فقيل « فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُوماً » أى بالجهل العظيم « مَّدْحُورًا » أى مبعدا مطروداً من الرحمة . وفى إيراد الإلقاء، مبنيًّا للمفعول، جرى على سنن الكبرياء ، وازدراء بالمشرك وجعلُ له ، من قبيل خشبة يأخذها آخذ بكفه ، فيطرحها فى التنور . انتهى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ، إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا)

« أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ، إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيماً » .

خطاب للذين قالوا من مشركى العرب (الملائكة بنات الله) . والهمزة للإنكار . قال الزمخشرىّ: والمعنى: أخصكم ربكم، على وجه الخلوص والصفاء، بأفضل الأولاد وهم الذكور، ولم يجعل فيهم نصيباً لنفسه ، واتخذ أدونهم ، وهن البنات ، وأنتم لا ترضونهن لأنفسكم ، بل تئدونهن وتقتلونهن . فهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم وعادتكم . فإن العبيد لا يؤثَرون بأجود الأشياء وأصفاها من الشوب ، ويكون أردؤها وأدونها للسادات . وقوله تعالى : (إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيماً) أى بإضافة الأولاد إليه ، وهى خاصة المحدثات . ثم بإيثاركم أنفسكم عليه ، حيث تجعلون له ما تكرهون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا)

[٤٢] (قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا)

« وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ » أى كررنا للناس البيان بوجوه كثيرة ، وبينا فيه من كل مثل « لِيَذَّكَّرُواْ » أى ليتعظوا ويعتبروا ويطمئنوا إلى ما يحتج به عليهم « وَمَا يَزِيدُهُمْ » أى التصريف المذكور « إِلَّا نُفُورًا » أى عن الحق وبعدا عنه ، الذى يقربه وجوه البيان . وقوله تعالى «قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا » أى قل لهؤلاء المشركين (الزاعمين أن لله شركاء من خلقه ، العابدين معه غيره، ليقربهم إليه زلفى) : لو كان الأمر كما تقولون، وأن معه آلهة تعبد لتقرّب إليه وتشفع لديه، لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه، ويبتغون الزلفى والطاعة لديه، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبده من تدعونه من دونه . ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه . فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه . بل يكرهه ويأباه. وقد نهى عن ذلك على ألسنة جميع رسله وأنبيائه . هذا ما اختاره ابن كثير ، وسبقه إليه ابن جرير .

وحاصله : أن السبيل بمعنى الوسيلة الموصلة إليه . وفيه إشارة إلى قياس اقترانىّ تقريره هكذا : لو كان كما زعمتم معه آلهة لتقربوا إليه . وكل من كان كذلك ليس إلهاً ، فهم ليسوا بآلهة . وقيل : معنى (لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا) أى لطلبوا إليه سبيلا بالمغالبة والممانعة ، كما هو ديدن الملوك بعضهم مع بعض ، على طريقة قوله تعالى[1]: (لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا) وهذا الوجه قدمه الزمخشرىّ على الأول . وقال أبو السعود : إنه الأظهر الأنسب لقوله :

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا)

[٤٤] (تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ، وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)

« سُبْحَـٰنَهُۥ » فإنه صريح فى أن المراد بيان أنه يلزم مما يقولونه محذور عظيم، من حيث لايحتسبون . وأما ابتغاء السبيل إليه تعالى بالتقرب ، فليس مما يختص بهذا التقرير ، ولا هو مما يلزمهم من حيث لايشعرون. بل هو أمر يعتقدونه رأساً. انتهى . ومعنى (سُبْحَـٰنَهُۥ) أى تنزه عن الولد والشريك تنزها حقيقاً به « وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا » أى تعاظم عن ذلك تعاظماً كبيراً . فإن مثل هذه الفرية والبهتان ، مما يتنزه عنه مقامه الأسمى .

قال الشهاب: وذكرُ العلوّ ، بعدعنوانه بـ(ذى العرش) ، فى أعلى مراتب البلاغة. وقوله تعالى : « تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ، وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا » أى تُنزِّهُ الله، وتقدسُهُ وتجلُّهُ السمواتُ والأرضُ ومن فيهن من المخلوقات عما يصفه به المشركون. وتشهد جميعها له بالوحدانية فى إلهيته وربوبيته ، كما قال[1] (تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا) وقوله تعالى:(وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) أى لأنها بخلاف لغاتكم .

قال ابن كثير : وهذا عام فى الحيوانات والجمادات والنباتات ، على أشهر القولين . ثم استدل بما صح من تسبيح الطعام والحصا، مِمَّا خرج فى الصحيحين والمسانيد، مما هو مشهور.

(١) [١٩ / مريم / ٩٠و٩١] .

واختاره الراغب فى (مفرداته) وقال : إنه تسبيح على الحقيقة بدلالة قوله : (وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) ودلالة قوله : (وَمَن فِيهِنَّ) بعد ذكر السموات والأرض ، لا يصح أن يكون تقديره (يسبح له من فى السموات ويسجد له من فى الأرض) لأن هذا من نفقهه ، ولأنه محال أن يكون ذلك تقديره ، ثم يعطف عليه بقوله : (وَمَن فِيهِنَّ) والأشياء كلها تسبح له وتسجد بعضها بالتسخير وبعضها بالاختيار . والآية تدل على أن المذكورات تسبح باختيار ، لما ذكر من الدلالة . انتهى .

وذهب كثيرون إلى أن التسبيح المذكور مجازىّ ، على طريقة الاستعارة التمثيلية أو التبعية . كـ (نطقت الحال) . فإنه استعير فيه للتسبيح للدلالة على وجود فاعل قادر حكيم واجب الوجود منزه عن الولد والشريك ، كما يدل الأثر على مؤثره . فجعلت تلك الدلالة الحالية كأنها تنزيه له عما يخالفه .

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

قالوا : والخطاب فى قوله تعالى (وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) للمشركين . أى لإخلالكم بالنظر الصحيح الذى به يفهم تسبيحهم . وقد بالغ فى رد القول الأول واختيار الثانى ، الإمام ابن حزم فى كتابه (الملل والنحل) ولا بأس بإيراده ، لما فيه من الغرائب .

قال رحمه الله فى الرد على من قال : (إن فى البهائم رسلًا) : إنما يخاطب الله تعالى بالحجة من يعقلها . قال الله تعالى[1] (يَـٰٓأُولِى ٱلْأَلْبَـٰبِ) وقد علمنا بضرورة الحس ؛ أن الله تعالى إنما خص بالنطق ـ الذى هو التصرف فى العلوم ومعرفة الأشياء على ما هى عليه ، والتصرف فى الصناعات على اختلافها ـ الإنسانَ خاصة . وأضفنا إليهم ، بالخبر الصادق ، الجن والملائكة . ثم قال رحمه الله وقد قاد السخف بعضهم إلى أن جعل للجمادات تمييزاً لمثل قوله تعالى (وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ) ونحوه من الآيات . ولاحجة لهم فيه .

(١) [٢ / البقرة / ١٧٩] .

لأن القرآن واجب أن يحمل على ظاهره ، كذلك كلام رسول الله ﷺ . ومن خالف ذلك كان عاصياً لله عز وجل ، مبدلًا لكلماته ، مالم يأت نص فى أحدها ، أو إجماع متيقن ، أو ضرورة حسّ على خلاف ظاهره ، فيوقف عند ذلك . ويكون من حمله على ظاهره حينئذ ناسباً الكذب إلى الله عز وجل ، أو كاذبا عليه وعلى نبيّه عليه السلام ، نعوذ بالله من كلا الوجهين .

وإذ قد بينا قبلُ بالبراهين الضرورية ؛ أن الحيوان (غير الإنس والجن والملائكة) . لانطق له . نعنى أنه لا تصرف له فى العلوم والصناعات . وكان هذا القول مشاهداً بالحس معلوما بالضرورة ، لا ينكره إلا وقح مكابر لحسّه ، وبيّنا أن كل ما كان بخلاف التمييز المعهود عندنا ، فإنه ليس تمييزا . وكان هذا إيضاً يعلم بالضرورة والعيان والمشاهدة ـ فوجب أنه بخلاف ما يسمى فى الشريعة واللغة نطقاً وقولًا وتسبيحاً وسجودا . فقد وجب أنها أسماء مشتركة اتفقت ألفاظها . وأما معانيها فمختلفة ، لا يحل لأحد أن يحملها على غير هذا . لأنه إن فعل كان مخبرا أن الله تعالى قال ما يبطله العيان والعقل الذى به عرفنا الله تعالى ، ولولاه ما عرفناه .

فاللفظ مشترك والمعنى هو ما قام الدليل عليه . بيان ذلك : أن التسبيح عندنا إنما هو قول (سبحان الله وبحمده) وبالضرورة نعلم أن الحجارة والخشب والهوامّ والحشرات والألوان لاتقول (سبحان الله بالسين والباء والحاء والألف والنون واللام والهاء) هذا ما لا يشك فيه من له مسكة عقل . فإذ لا شك فى هذا ، فباليقين علمنا أن التسبيح الذى ذكره الله تعالى هو حق وهو معنى غير تسبيحنا نحن بلا شك . فإذ لا شك فى هذا فإن التسبيح فى أصل اللغة هو تنزيه الله تعالى عن السوء . فإذ قد صح هذا ، فإن كل شىء فى العالم بلا شك منزّه لله تعالى عن السوء الذى هو صفة الحدوث . وليس فى العالم شىء إلا وهو دالّ (بما فيه من دلائل الصنعة واقتضائه صانعاً لايشبهه) على أن الله تعالى منزه عن كل

سوء ونقص . وهذا هو الذى لا يفهمه ولا يفقهه كثير من الناس كما قال تعالى (وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) فهذا هو تسبيح كل شيء بحمد الله تعالى بلا شك . وهذا المعنى حق لا ينكره موحد . فإن كان قولنا هذا متفقاً على صحته . وكانت الضرورة توجب أنه ليس هو التسبيح المعهود عندنا ، فقد ثبت قولنا وانتفى قول من خالفنا بظنه .

وأيضاً فإن الله تعالى يقول « وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » والكافر الدهرىّ شيء لا يشك فى أنه شيء وهو لا يسبح بحمد الله تعالى البتة فصح ضرورة أن الكافر يسبح؛ إذ هو من جملة الأشياء التى تسبح بحمد الله تعالى . وإن تسبيحه ليس هو قوله (سبحان الله وبحمده) بلا شك . ولكن تنزيه الله تعالى بدلائل خلقه وتركيبه عن أن يكون الخالق مشبها لشيء مما خلق . وهذا يقينىّ لا شك فيه .

فصح بما ذكرنا أن لفظة (التسبيح) هى من الأسماء المشتركة ، وهى التى تقع على نوعين فصاعدا . انتهى كلامه .

ومحصله نفى أن يكون للجمادات تسبيح وتمييز بالمعنى الموجود فى الإنسان . وهو حق لاشبهة فيه ولا يسوغ لأحد إنكاره . إلا أنه لا ينفى أن يكون له تسبيح وفيه تمييز يناسبه. فيرجع الخلاف لفظيًّا . وقد وافق العلم الحديث الآن ـ كما قاله بعض الفضلاء ـ على أن فى الجماد أثراً من الحياة . وأن فيه جميع الصفات الجوهرية التى تميز الأحياء . وأن ما فيه فى الجواهر الفردة ودقائق المادة ليست ميتة ، بل هى عناصر حية متحركة لها صورة من صور الحياة الدنيا المشاهدة فى جميع أنواع المادة مثل الجذب والدفع ، والتأثر بالمؤثرات الخارجية ، وتغير قوة التوازن ، وتجمع الدقائق على أشكال منتظمة، طبقاً لتراكيب محدودة . وإفراز مركبات كيماوية مختلفة . وبالجملة ؛ فما يقوله العلم الجديد عن مشابهة الأجسام غير الحية للأجسام الحية يطابق تصورات الأقدمين والشعراء فى ذلك . انتهى .

وقوله تعالى « إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا » أى حيث لم يعاجلهم بالعقوبة ، مع كفرهم وقصورهم فى النظر . ولو تابوا لغفر لهم ما كان منهم .

ثم مثل تعالى حالة المشركين مع التنزيل الكريم ، حينما يقرؤه عليهم الرسول، صلوات الله عليه ، يدعوهم إلى العمل بما فيه من التوحيد ، ورفض الشرك وغير ذلك من ضلالهم ، بمن طمس على بصيرته وبصره وسمعه ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا)

« وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ » أى على هؤلاء المشركين « جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ » أى لا يصدقون بالبعث ولا يقرّون بالثواب والعقاب ، جزاء على الأعمال « حِجَابًا مَّسْتُورًا » أى من الجهل وعمى القلب . فيحجب قلوبهم عن أن يفهموا ما تقرؤه عليهم فينتفعوا به ، عقوبة منّا لهم على كفرهم .

ومعنى كون الحجاب مستوراً ، أى عن العيون ، فلا تدركه أبصارهم . وعن الأخفش: إن (مفعولا) يرد بمعنى (فاعل) كميمون ومشئوم بمعنى يامن وشائم . كما أن (فاعلا) يرد بمعنى (مفعول) كماء دافق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا)

« وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً » أى أغطية كثيرة ، جمع (كنان) «أَن يَفْقَهُوهُ» أى كراهة أن يفقهوه « وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا »أى صمماً يمنعهم من استماعه . وذلك ما يتغشاها من خذلان الله تعالى إياها ، عن فهم ما يتلى عليهم والإنصات له .

قال أبو السعود: هـذه تمثيلات معربة عن كمال جهلهم بشؤون النبيّ صلى الله عليه وسلم. وفرط نبوّ قلوبهم عن فهم القرآن الكريم، ومجّ أسماعهم له، جيء بها بيانا لعدم فقههم لتسبيح لسان المقال، إثر بيان عدم فقههم لتسبيح لسان الحال. وإيذاناً بأن هذا التسبيح من الظهور بحيث لا يتصور عدم فهمه، إلا لمانع قويّ يعترى المشاعر فيبطلها. تنبيها على أن حالهم هذا أقبح من حالهم السابق.

« وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ » أى غير مشفوع بذكره ذكر شيء من آلهتهم «وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا» أى هربا من استماع التوحيد. قال القاشانيّ: لتشتت أهوائهم، وتفرق همهم فى عبادة متعبداتهم، من أصنام الجسمانيات والشهوات. فلا يناسب بواطنهم معنى الوحدة لتألفها بالكثرة واحتجابها بها. ثم أخبر تعالى عما يتناجى به المشركون، رؤساء قريش، بقوله متوعدا لهم:

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٧] (نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا)

[٤٨] (ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا)

« نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ » أى بسببه أو لأجله من الهزء والاستخفاف واللغو « إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا» أى سُحِر، فجُنّ فاختلط كلامه « ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ » أى مثلوك بالشاعر والساحر والمجنون « فَضَلُّوا۟ » أى عن الحق والهداية بك « فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا » أى فلا يهتدون لطريق الحق لضلالهم عنه وبعدهم منه. وأن الله قد خذلهم عن إصابته. أو المعنى فلا يستطيعون سبيلًا إلى طعن يمكن أن يقبله أحد، بل يخبطون بما لا يرتاب فى بطلانه أحد. كالمتحير فى أمره لا يدرى ماذا يصنع.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا)

[٥٠] (قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا)

[٥١] (أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ، فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ، قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ، قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا)

[٥٢] (يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا)

«وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا» وهو ما بلى وتفتّت «أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا* قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ » أى يعظم فى نفوسكم عن قبول الحياة ويعظم فى زعمكم على الخالق إحياؤه . فإنه يحييكم ولا يعجزه بعثكم. فكيف ، إذا كنتم عظاماً مرفوتة وقد كانت موصوفة بالحياة قبل ، والشىء أقبل لما عهد فيه مما لم يعهد « فَسَيَقُولُونَ » أى بعد لزوم الحجة عليهم « مَن يُعِيدُنَا ، قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ » أى يحركونها برفع وخفض ، تعجباً واستهزاءً « وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ » أى ما ذكرته من الإعادة « قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيباً * يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ » أى يوم يبعثكم فتنبعثون . قال القاضى : استعار لهما الدعاء والاستجابة ، للتنبيه على سرعتهما وتيسر أمرهما . وإن المقصود منهما الإحضار للمحاسبة والجزاء . انتهى.

وقيل : إنهما حقيقة كما فى آية[1] (يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ) وفى قوله

---

(١) [٥٠ / ق / ٤١] .

(يَوْمَ يَدْعُوكُمْ) وجوه للمعربين . ككونه بدلًا من (قريباً) على أنه ظرف . أو منصوب بـ (يكون) أو بمقدر كـ(اذكر) أو (تبعثون) . وقوله تعالى « بِحَمْدِهِ » أى وله الحمد على ما أحضركم للجزاء وتحقق وعده الصدق « وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا » أى تستقصرون مدة لبثكم فى القبور والمضاجع . لذهولكم عن ذلك الزمان . أو فى الحياة الأولى ، لاستقصاركم إياها ، بالنسبة إلى الحياة الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا)

[٥٤] (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا)

« وَقُل لِّعِبَادِي » أى الذين آمنوا معك . إرادة تقريب أصحابهم إلى الصواب ، كأمر البعث « يَقُولُوا » فى النصيحة ، الكلمة « الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » أى فلا يخاشنوا أحدا ولا يغلظوا بالقول « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ » أى يفسد ويهيج الشر والمراء ، لتقع بينهم المضارّة « إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا » وقوله تعالى « رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ » خطاب لهؤلاء المشركين من قريش . أى إن يشأ يرحمكم فيتوب عليكم برحمته وتنيبوا إليه . وإن يشأ يعذبكم بأن يخذلكم عن الإيمان ، فتموتوا على الشرك فيعذبكم عليه يوم القيامة .

وقوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا » أى موكولًا إليك إليك أمرهم . تقسرهم على الإيمان . وإنما أرسلناك مبشراً ونذيراً ، تبلغهم رسالاتنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ، وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا)

« وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى فلا يخفى عليه شىء فيهما . فهو أعلم بهؤلاء ضرورة . وفيه إشارة إلى رحمته تعالى ببعثة الرسل ، لحاجة الخلق إليها . وإلى مشيئته فيمن يصطفى لرسالته ، ويختار لنبوّته ، ويعلمه أَهْلًا لها . وقوله تعالى :

« وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ » أى لاقتضاء علمه وحكمته ذلك . فإنه أعلم بمن فى السموات والْأَرْضِ وأحوالهم . فآتى موسى التوراة وكله ، وعيسى الإنجيل وداود الزبور . فضلهم بما آتاهم على غيرهم . وقد آتى محمداً القرآن ففضله به على الأنبياء كافة . وقوله تعالى «وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا» أى يشتمل على الحكمة وفصل الخطاب، ففضلناه به . قيل: الآية ردٌّ عليهم إذ استبعدوا أن يكون ﷺ نبيًّا، دون من يعدّونه عظيماً بينهم فى الغنى والجاه. وذكر من فى السموات لإبطال قولهم[1] (لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ) وذكر من فى الأرض لرد قولهم[2] (لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ). وتخصيص داود بالذكر ، إشارة لتفضيل النبىّ ﷺ ، كما دل عليه ما كتب فيه من[3] (أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ) ففيه تلميح إلى ما وقع فيه من وصفه بما ذكر فيه . وإيثار الزبور على الملك بيان لحيثية شرفه ، وأنه بما أوحى إليه من الكتاب والعلم ، لا بالملك والمال ، كذا قالوا . والظاهر أنه للإشارة إلى أن داود عليه السلام لم يكن فى نشأته الأولى ممن يظن أنه يبلغ مابلغ فى الحكمة والملك . وقد اختصه الله بهما وميزه الله على أهل عصره. وإذ كان ذلك اختصاصاً ربانيًّا ، فلا غرابة أن يختص سبحانه من العرب ، مَن علم أنه أرجحهم عقلا ، وأكملهم فضلًا ، لختم نبوته ، وهداية بريته، بمنهاجه وشرعته. وقوله تعالى:

(١) [٢٥ / الفرقان / ٢١] . (٢) [٤٣ / الزخرف / ٣١] .
(٣) [٢١ / الأنبياء / ١٠٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا)

[٥٧] (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا)

« قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا » .

أى قل لهؤلاء المشركين ، الذين يعبدون من دون الله من خلقه ، ادعوا من زعمتموهم أربابا وآلهة من دونه ، عند ضر ينزل بكم ، وانظروا هل يقدرون على دفع ذلك عنكم أو تحويله عنكم إلى غيركم ، فتدعونهم آلهة ؟ أى فإنهم لا يقدرون على ذلك ولا يملكونه ، وإنما يملكه ويقدر عليه خالقكم وخالقهم .

روى الطبرىّ[1] عن ابن عباس ؛ أن الآية عنى بها قوم مشركون، كانوا يعبدون المسيح وعزيراً والملائكة . فأخبرهم الله تعالى أن هؤلاء عبيده يرجون رحمته ويخافون عذابه . ويتقربون إليه بالأعمال. ونظير هذه الآية فى النهى عن أن يشرك به تعالى الملائكة والأنبياء، قوله سبحانه[2] (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ،

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٦ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) [٣ / آل عمران / ٧٩و٨٠] .

أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ) وفى قوله تعالى : (وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ) إشارة إلى أن العبادة لا تتم إلا بالرجاء والخوف. فبالرجاء تكثر الطاعات وبالخوف تقل السيئات . وقوله تعالى : (مَحْذُورًا) أى ينبغى أن يحذر منه ويخاف من حلوله . عياذاً بالله منه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ، كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا)

« وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ، كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا » .

إخبار بأنه حَتَمَ وقضى ؛ أنه ما من قرية يتمرد أهلها على نبيّهم ، إلا ويبيدهم ، أو ينزل بهم من العذاب شديده . وذلك لذنوبهم وخطيئاتهم وعدم استجابتهم لنبيهم ، كما قال تعالى[١] : (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ) وقال تعالى[٢] (فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا) وقال تعالى[٣] (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ ...) الآيات وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ، وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ، وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا)

« وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ » أى التى يقترحها قريش: « إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا

---

(١) [١١ / هود / ١٠١] . (٢) [٦٥ / الطلاق / ٩]. (٣) [٦٥ / الطلاق / ٨].

ٱلْأَوَّلُونَ » أى إلَّا تكذيب الأولين الذين هم أمثالهم . كعاد وثمود . وأنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك . فاستوجبوا الاستئصال . على ما مضت به السنّة الإلٰهية . وقد قضينا أن لا نستأصلهم ، لأن منهم من يؤمن أو يلد من يؤمن . ثم ذكر بعض الأمم المهلكة بتكذيب الآيات المقترحة ، فقال : « وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ » أى أعطينا قوم صالح الناقة بسؤالهم « مُبْصِرَةً » أى بينة، تبصر الغيْرَ برهانَها « فَظَلَمُوا۟ بِهَا » أى فكفروا بها وظلموا أنفسهم بسبب عقرها، فأبادهم الله عن آخرهم وانتقم منهم «وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا » أى وما نرسل الآيات المقترحة إلا تخويفاً للناس، ليعلموا السنّة الإلٰهية مع العاتين، فيتذكروا ويتوبوا .

روى الإمام أحمد[1] عن ابن عباس قال : سأل أهل مكة النبيّ ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبا ، وأن ينحّى الجبال عنهم فيزرعوا . فقيل له : إن شئت أن تستأنى بهم ، وإن شئت أن يأتيهم الذى سألوا . فإن كفروا ، هلكوا كما أهلكت من كان قبلهم من الأمم . قال : لا . بل استأنى بهم ، وأنزل الله قوله تعالى : « وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ ... » . الآية. ورواه النسائىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ، وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ، وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا)

« وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ » أى علما ، فلا يخفى عليه شىء من كفرهم

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٥٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٢٣٣٣ (طبعة المعارف) .

وتكذيبهم . ومنه ماجرى منهم ، إثر الرؤيا والإخبار بالشجرة، من الجحود والهزء واللغو. كما قال سبحانه « وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ » قال الأكثرون : يعنى مارآه النبىّ ﷺ ليلة الإسراء من الآيات. فلما ذكرها النبىّ ﷺ للناس، أنكر بعضهم ذلك وكذّبوا. وجعل الله ذلك ثباتاً ويقيناً للمخلصين. فكانت فتنة، أى اختباراً وامتحاناً. وتمسك بهذا من جعل الإسراء مناما ، لكون الرؤيا مخصوصة بالمنام . وأجيب بأن قوله تعالى (إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ) يرده. لأن رؤيا المنام لايفتتن بها أحد ولا يكذّب . وجاء فى اللغة (الرؤيا بمعنى الرؤية مطلقاً) وهو معنى حقيقىّ لها . وقيل : إنها حقيقة فى رؤيا المنام ورؤيا اليقظة ليلًا . وقد ذكر السهيلىّ؛ أنه ورد فى كلام العرب بهذا المعنى . وأنه كالقربى والقربة. وقيل : إنه مجاز ، إما مشاكلة لتسميتهم له رؤيا ، أو جارٍ على زعمهم . أو على التشبيه بها لما فيها من خرق العادة . أو لوقوعها ليلًا . أو لسرعتها . أفاده الشهاب .

وروى الطبرىّ[1] عن الحسن فى الآية هذه ؛ قال : أسرى به صلى الله عليه وسلم عشاءً إلى بيت المقدس فصلى فيه وأراه الله ما أراه من الآيات . ثم أصبح بمكة فأخبرهم أنه أسرى به إلى بيت المقدس . فقالوا له : يامحمد ! ما شأنك ؟ أمسيت فيه ثم أصبحت فينا تخبرنا أنك أتيت بيت المقدس ؟ فعجبوا من ذلك حتى ارتد بعضهم عن الإسلام .

وقال قوم[2] : الآية فى رؤياه ﷺ التى رأى أنه يدخل مكة . فروى البرىّ عن ابن عباس . قال : يقال: إن رسول الله ﷺ أُرِىَ أنه دخل مكة هو وأصحابه. وهو يومئذ بالمدينة. فعجل رسول الله ﷺ السير إلى مكة. قبل الأجل : فرده المشركون . فقالت أناس : قد رُدَّ رسول الله ﷺ ، وقد كان حدثنا أنه سيدخلها. فكانت رجعتهُ فتنتهم. وذلك عام الحديبية. ثم دخل مكة فى العام المقبل. وأنزل الله عزّ وجل (لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّـهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ) ولا يقال : إن السورة مكية وقصة الحديبية بعد الهجرة ، لاحتمال أنه رأى تلك الرؤيا بمكة ،

(١) انظر الصفحة رقم ١١٠ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١١٢ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

ونزلت عليه هذه الآية . ولكنه ذكرها عام الحديبية ، لأنه كان إذ ذاك بمكة . فعلم أن دخوله بعد خروجه منها . كذا قيل .

وذهب بعضهم إلى أن كثيراً من السور المكية ضم إليها آيات مدنية، كما فى (الإتقان). والطبرىّ رجح الأول وفاقاً للأكثر . وقد قدمنا مراراً ؛ أن السلف قد يريدون بقولهم : (نزلت الآية فى كذا)، أن لفظ الآية مما يشمل ذلك. لا أنه كان سبباً لنزوله حقيقة. وعليه، فلا إشكال .

وقوله تعالى «وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ» عطف على الرؤيا، والأكثرون على أنها شجرة الزقوم المذكورة فى سورة الصافات فى قوله تعالى[1] (أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ...) الآيات ، وفتنتهم فيها مارواه الطبرىّ[2] عن ابن عباس وقتادة ؛ أن أبا جهل قال : زعم صاحبكم هذا ـ يعنى النبىّ صلوات الله عليه أن فى النار شجرة، والنار تأكل الشجر ! فكذبوا بذلك . وفى رواية ؛ أن أبا جهل قال : أيخوفنى بشجر الزقوم ؟ ثم دعا بتمر وزبد وجعل يأكل ويقول : تزقموا ، فما نعلم الزقوم غير هذا . والمراد بلعنها فى القرآن ، لعن طاعمها فيه ، على أنه مجاز فى الإسناد . أو الملعون بمعنى المؤذى لأنها تغلى فى البطون كغلى الحميم . فهو إما مجاز مرسل أو استعارة . وقوله تعالى « وَنُخَوِّفُهُمْ » أى بذلك وبنظائره من الآيات « فَمَا يَزِيدُهُمْ » أى التخويف « إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا » أى تمادياً فيما هم فيه من الضلال والكفر .

---

(١) [٣٧ / الصافات / ٦٢ـ٦٥] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٦٣ من الجزء الثالث والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

قال الهايمىّ : أى فلو أرسلنا إليهم الآيات المقترحة ، لقالوا إنه أجلّ مَن أحاط بأبواب السحر . فلا فائدة فى إرسالها سوى تعجيل العذاب الدنيوىّ . لكنه ينافى إظهار دينه على الدين كله . ثم أشار تعالى إلى أن هذا الطغيان من اتباع الشيطان. وأنه وحزبه، لعتوهم وتمردهم عن الحق ، فى النار ، بقوله سبحانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا)

[٦٢] (قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا)

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ » أى تحيـة وتكريماً « فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا » كما قال فى الآية الأخرى[1] (أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ) « قَالَ » أى جراءة على الرب وكفرًا به « أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ » أى أخبرنى عن هذا الذى كرمته علىّ بأن أمرتنى بالسجود له، لِمَ كرمته علىّ ؟ أو المعنى : أخبرنى أهذا الذى كرمته علىّ « لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا » أى لأعمّنهم وأهلكنّهم بالإغواء ، إلا المخلصين .

---

(١) [٣٨ / ص / ٧٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا)

[٦٤] (وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ، وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا)

[٦٥] (إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ، وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا)

« قَالَ ٱذْهَبْ » أى امض لشأنك الذى اخترته « فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا » أى جزاء مكملا « وَٱسْتَفْزِزْ » أى استخف وأزعج « مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم » أى أن تستفزه فتخدعه « بِصَوْتِكَ » أى بدعائك إلى الفساد . وعبّر عن الدعاء بالصوت تحقيراً له حتى كأنه لا معنى له « وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ » أى صح عليهم . من الجلبة (بفتحات) وهى الصياح . و (الخيل) الخيالة أى ركبان الخيل مجازاً . وأصل معنى الخيل الأفراس . (والرّجل) اسم جمع للراجل وهو خلاف الفارس ، والمراد الأعوان والأتباع مطلقاً .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : ما معنى استفزاز إبليس بصوته وإجلابه بخيله ورجله؟ قلت: هو كلام ورد مورد التمثيل، مثلت حاله فى تسلطه على من يغويه ، بمغوار ـ بكسر الميم، الكثير الغارة وهى الحرب والنهب ـ أوقع على قوم فصوت بهم صوتاً يستفزهم من أماكنهم، ويقلقهم عن مراكزهم. وأجلب عليهم بجنده من خيالة حتى استأصلهم ـ أى فالكلام استعارة تمثيلية مركبة . استعير فيه المجموع والهيئة للمجموع والهيئة . ووجهه ما ذكره من استئصالهم وإهلاكهم ، أو غلبته وتسخيره لهم . وجوز أن يكون التجوز فى المفردات تجوزا بصوته عن دعائه إلى الشر بالوسوسة . وبخيله ورجله عن كل راكب وماش من أهل العيث

والفساد بإغوائه . « وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ » أى بحمله إياهم على إنفاقها فى المعاصى وجمعها من حرام والتصرف فيها تحريماً وتحليلاً بما لا يرضى « وَٱلْأَوْلَٰدِ » أى بالتفاخر فيهم وتضليلهم بصبغهم غير صبغة الدين ، وَوَأْدِهِمْ ونحو ذلك مما يعصى الله بسببه « وَعِدْهُمْ » أى المواعيد الباطلة والأمانىّ الكاذبة من سلامة العاقبة ودوام الغلبة «وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا » وهو تزيين الباطل بزينة الحق « إِنَّ عِبَادِى » أى المخلصين « لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ » أى تسلط بالإغواء « وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا » أى كفيلا لهم يتوكلون عليه ولا يلجؤون فى أمورهم إلا إليه ، وهو كافيهم .

وقد أشار القاشانىّ إلى أن الآية تشير إلى انقسام الناس مع الشيطان على أصناف. وعبارته: تمكن الشيطان من إغواء العباد على أقسام . لأن الاستعدادات متفاوتة . فمن كان ضعيف الاستعداد استفزه . أى استخفه بصوته ، يكفيه وسوسة وهمس بل هاجس ولمة . ومن كان قوىّ الاستعداد ، فإن أخلص استعداده عن شوائب الصفات النفسانية، أو أخلصه الله تعالى عن شوائب الغيرية، فليس له إلى إغوائه سبيل كما قال (إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ) وإلا فإن كان منغمسا فى الشواغل الحسية ، غارزاً رأسه فى الأمور الدنيوية، شاركه فى أمواله وأولاده، بأن يحرّضه على إشراكهم بالله فى المحبة . بحبهم كحب الله . ويسوّل له التمتع بهم، والتكاثر والتفاخر بوجودهم . ويمنيه الأمانىّ الكاذبة . ويزين عليه الآمال الفارغة . وإن لم ينغمس ، فإن كان عالماً بصيراً بتسويلاته، أجلب عليه بخيله ورجله. أى مكر به بأنواع الحيل. وكاده بصنوف الفتن . وأفتى له فى تحصيل أنواع الحطام والملاذ بأنها من جملة مصالح المعاش. وغره بالعلم وحمله على الإعجاب . وأمثال ذلك حتى يصير ممن أضله الله على علم . وإن لم يكن عالماً بل عابداً متنسكا، أغواه بالوعد والتمنية . وغره بالطاعة والتزكية أيسر ما يكون . انتهى.

ثم بين تعالى بعضاً من آيات وحدانيته وألوهيته بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ، إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا)

« رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ » أى يُسَيِّر لكم السفن فى البحر « لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ » أى من رزقه. والآية صريحة فى ركوب البحر للتجارة « إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا » حيث سهل لكم أسباب ذلك .

قال أبو السعود : وهذا تذكير لبعض النعم التى هى من دلائل التوحيد ، وتمهيد لذكر توحيدهم عند مساس الضرّ ، تكملة لما مرّ من قوله (فَلَا يَمْلِكُونَ...) الآية ، وذلك قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ، فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ، وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا)

« وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ » أى خوف الغرق « ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ » أى ذهب عن أوهامكم وَخَوَاطِرِكُمْ كل من تدعونه وتعبدونه ، إلّا إياه وحده . فإنكم لاتذكرون سواه . فطرةً فطر الله الخلق عليها .

وهذه الآية مما يستدل بها على الرجوع إلى الفطرة الصحيحة . وقد استدل لكثير من الأصول بها ، كما يعلم ذلك من كلام الأئمة فى مسائل شتى . كمسألة وجود الخالق وعلوّه ، والمعاد وغيرها . وقوله تعالى : « فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ » أى من الغرق: « إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ » أى عن التوحيد: « وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا » أى بأنعم الله . والجملة كالتعليل للإعراض. قال الشهاب : وفيه لطف ، حيث أعرض عن خطابهم بخصوصهم . وذكر أن جنس

الإنسان مجبول على هذا . فلما أعرضوا أعرض الله عنهم . ثم خوفهم تعالى بقدرته العظيمة ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا)

[٦٩] (أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا)

« أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ » أى يغوّره بكم « أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا » أى ريحاً ترمى بالحصباء يرجمكم بها ، فيكون أشدَّ عليكم من الغرق : « ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا » أى من يتوكل بصرف ذلك عنكم « أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ » أى يقوّى دواعيكم لركوب البحر « تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِّنَ ٱلرِّيحِ » أى ريحاً شديدة لاتمر بشىء إلا قصفته ، فتكسر السفينة وسط البحر « فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعاً » أى مطالباً بما فعلنا . مثل من يطالب على مُغْرِقٍ سوانا . وهذا كقوله[1] : (وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)

« وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ » أى بالنطق والتمييز والعقل والمعرفة والصورة والتسلط على مافى الأرض والتمتع به « وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ » أى يسرنا لهم أسباب المعاش والمعاد

(١) [٩١ / الشمس / ١٥] .

بالسير فى طلبها فيهما ، وتحصيلها « وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ » أى فنون المستلذات التى لم يرزقها غيرهم من المخلوقات « وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا » أى عظيما . فحق عليهم أن يشكروا هذه النعم ، بأن يعبدوا المتفضل بها وحده ويقيموا شرائعه وحدوده.

تنبيه :

ظاهر قوله تعالى (على كثير) أن ثمة من لم يفضل البشر عليه . قيل وهم الذوات المقدسة من الملإ الأعلى ، أعنى الملائكة .

قال القاشانىّ : وأما أفضلية بعض الناس ، كالأنبياء على الملائكة المقربين ، فليست من جهة كونهم بنى آدم . بل من جهة السر المودع فيهم المشار إليه بقوله[1] : (إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) وهو ما أعد لذلك البعض من المعرفة الإلٰهية التامة . وحينئذ ليس هو بهذا الاعتبار من بنى آدم كما قيل[2] :

وإنى وإن كنتُ ابنَ آدم صورةً ... فلى فيه معنى شاهدٌ بأُبُوَّتِى

وذهب قوم إلى تأويل (الكثير) بـ(الكل) كما أوِّل (القليل) بمعنى (العدم) فى قوله تعالى[3] : (فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ) والمعنى : وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى ٱلْجَمِّ ٱلْغَفِيرِ مِمَّنْ خَلَقْنَا . أى جميع المخلوقات .

قال القاشانىّ : على أن تكون (من) للبيان والمبالغة فى تعظيمه ، بوصف المفضل عليهم بالكثرة وتنكير الوصف وتقديمه على الموصوف . أى كثير وأى كثير ، وهو جميع

(١) [٢ / البقرة / ٣٠] .

(٢) قائله عمر بن الفارض من تائيته الكبرى المسماة بنظم السلوك . ومطلعها :

سقَتْنِى حُمَيَّا الحبِّ راحة مُقْلَتِى ... وكأسى محيَّا مَنْ عن الحسن جَلَّتِ

(٣) [٢ / البقرة / ٨٨] .

مخلوقاتنا . لدلالة (مَن) على العموم . ولا يخفى أنه لا يلزم من تفضيل جنس على جنس آخر تفضيل كل فرد منه على كل فرد من الآخر . والمسألة معروفة فى كتب الكلام .

وقوله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ، فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا)

[٧٢] (وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا)

« يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ » أى بمن ائتموا به من نبيّ أو مقدّم فى الدين أو كتاب أو دين. فيقال : ياأتباع فلان ! ياأهل دين كذا وكتاب كذا وقيل : بكتاب أعمالهم. فيقال : ياأصحاب كتاب الخير! وياأصحاب كتاب الشر! قالوا: وفيه شرف لأصحاب الحديث . لأن إمامهم النبيّ ﷺ.

وقال القاشانىّ : أى نحضر كل طائفة من الأمم مع شاهدهم الذى يحضرهم ويتوجهون إليه ويعرفونه ، سواء كان صورة نبيّ آمنوا به ، أو إمام اقتدوا به ، أو دين أو كتاب ، أو ما شئت . على أن تكون (الباء) بمعنى (مع) . أو ننسبهم إلى إمامهم وندعوهم باسمه، لكونه هو الغالب عليهم وعلى أمرهم ، المستعلى محبتهم إياه على سائر محباتهم .

ورجح ابن كثير، رحمه الله، القول بأن الإمام هو كتاب الأعمال، لقوله تعالى(١)(وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ) وقال تعالى(٢)(وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ..)الآية،وقال تعالى(٣)(وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ* هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

---

(١) [٣٦/ يس /١٢] . (٢) [١٨ /الكهف/ ٤٩] ، (٣) [٤٥/ الجاثية٢٨ ، ٢٩].

وما رجحه رحمه الله هو الصواب . لأن القرآن يفسر بعضه بعضاً . وأول ما ينبغى الاهتمام به فى معانى الآيات ، هو الرجوع إلى نظائرها . وقوله تعالى « فَمَنْ أُوتِىَ » أى من هؤلاء المدعوّين « كِتَـٰبَهُۥ » أى كتاب أعماله « بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ » أى فرحا وابتهاجاً بما فيه من العمل الصالح « وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا » أى لاينقصون من أجورهم قدر فتيل ، وهو ما فى شق النواة ، أو ما تفتله بين أصبعيك ، أو هو أدنى شىء . فإن الفتيل مثل فى القلة ، كقوله تعالى[1] (وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا) .

«وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا» أى ومن كان فى هذه الحياة الدنيا أعمى عن الاهتداء إلى الحق ، فهو فى الآخرة أعمى لا يرى طريق النجاة ، وأضل سبيلا منه فى الدنيا . لأن له فى هذه الحياة آلات وأدوات وأسباباً يمكنه الاهتداء بها . وهو فى مقام الكسب باق الاستعداد . ولم يبق هناك شىء من ذلك . قيل : العمى حقيقة فيمن لايدرك المبصرات ، لفساد حاسته . مجازٌ فى عمى البصيرة ، وهو عدم الاهتداء إلى طريق النجاة . وقيل : هو حقيقة فيهما . وعليه جوز أن يكون (أعمى) الثانى أفعل تفضيل . لأنه من عمى القلب لا عمى البصر . ويجوز أن يصاغ من العيوب الباطنة أفعل تفضيل كالأحمق والأبله .

لطيفة :

قال الناصر : يحتمل أن تكون هذه الآية قسيمة الأولى . أى فمن أوتى كتابه بيمينه فهو الذى يبصره ويقرؤه . ومن كان فى الدنيا أعمى غير مبصر فى نفسه ، ولا ناظر فى معاده ، فهو فى الآخرة كذلك ، غير مبصر فى كتابه ، بل أعمى عنه أو أشد عمى مما كان فى الدنيا ، على اختلاف التأويلين . وقوله تعالى :

---

(١) [١٩ / مريم / ٦٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ، وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا)

[٧٤] (وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا)

«وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ، وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا» إخبار عن تأييده تعالى رسوله ، صلوات الله عليه وسلامه ، وتثبيته وعصمته وتولى أمره وحفظه . فإن المشركين ، لكثرة تفننهم فى ضروب الأذى وشدة تعنتهم وقوة شكيمتهم، كادوا أن يفتنوه . ولكن عناية الله وحفظه ، هو الذى ثبت قدمه فى مثل مقامه فى الدعوة إلى الله الذى لا يثبت فيه أحد غيره . وقد روى أن ثقيفاً قالوا : لا نؤمن حتى تعطينا خصالا نفتخر بها على العرب : لا ننحنى فى الصلاة ، ولا نكسر أصنامنا بأيدينا ، وأن تمتعنا باللات سنة من غير أن نعبدها . فإن خشيت أن يسمع العرب (لِمَ أَعْطَيْتَهُمْ مَالَمْ تُعْطِنَا) ؟ فقل : الله أمرنى بذلك .

وروى أن قريشاً قالوا : لا ندعك يا محمد أن تستلم الحجر الأسود حتى تمس آلهتنا . وقالوا أيضاً : نؤمن بك إن تمس آلهتنا .

قال الإمام الطبرىّ : يجوز أن تكون الفتنة ما ذكر . وأن تكون غير ذلك . ولا بيان فى الكتاب ولا فى خبر يقطع العذر أىّ ذلك كان . فالأصوب الإيمان بظاهره حتى يأتى ما يجب التسليم له ، ببيان ما عنى بذلك منه .

قال الزجاج : معنى الكلام كادوا يفتنونك . ودخلت (أن) المخففة من الثقيلة و(اللام) للتأكيد . والمعنى : أن الشأن قاربوا أن يفتنوك أى يخدعوك . ويصرفوك عن القرآن أى عن حكمه . وذلك لأن فى إعطائهم ما سألوا مخالفة لحكم القرآن . وقوله : (لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ) أى غير ما أوحينا إليك وهو قولهم : قُلِ اللهُ أَمَرَنِي بِذَلِكَ

(وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا) أى لو فعلت ما أرادوا لا تخذوك خليلًا ، وأظهروا للناس أنك موافق لهم على كفرهم ، وراض بشركهم . ثم قال (وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ) أى على الحق بعصمتنا إياك (لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ) أى تميل إليهم (شَيْـًٔا قَلِيلًا) وقوله (شَيْـًٔا) عبارة عن المصدر ، أى ركونا قليلا .

وعن قتادة : لما نزلت هذه الآية ، قال النبىّ صلى الله عليه وسلم (اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين) . ثم توعده فى ذلك أشد التوعد ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا)

« إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ » أى ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات ، يريد عذاب الدنيا وعذاب الآخرة . (والضعف) عبارة عن أن يضم إلى الشىء مثله ، ودل على إضمار العذاب ، وصف العذاب بالضعف فى كثير من الآيات . كقوله تعالى[1] (رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ) وقال[2] (لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ) .

والسبب فى تضعيف العذاب ؛ أن أقسام نعم الله على الأنبياء أكثر . فكانت ذنوبهم أعظم . فكانت العقوبة المستحقة عليها أكثر . ونظيره قوله تعالى[3] (يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ) .

تنبيهات :

الأول : قال القفال رحمه الله (بعد ذكره ما روى فى سبب نزولها مما قدمناه) : ويمكن أيضاً تأويلها من غير تقييد بسبب يضاف نزولها فيه . لأن من المعلوم أن المشركين كانوا يسعون فى إبطال أمر رسول الله ﷺ بأقصى ما يقدرون عليه . فتارة كانوا يقولون :

(١) [٣٨ / ص ٦١] . (٢) [٧ / الأعراف / ٣٨] .
(٣) [٣٣ / الأحزاب / ٣٠] .

إن عبدت آلهتنا عبدنا إلهك . فأنزل الله تعالى[١] : (قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) وقوله[٢]: (وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ) وعرضوا عليه الأموال الكثيرة والنساء الجميلة ليترك ادعاء النبوة . فأنزل الله تعالى[٣] (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ) ودعوه إلى طرد المؤمنين عن نفسه فأنزل الله تعالى قوله[٤] : (وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم) فيجوز أن تكون هذه الآيات نزلت فى هذا الباب . وذلك أنهم قصدوا أن يفتنوه عن دينه ، وأن يزيلوه عن منهجه . فبين تعالى أنه يثبته على الدين القويم والمنهج المستقيم . وعلى هذا الطريق ، فلا حاجة فى تفسير هذه الآيات ، إلى شىء من تلك الروايات . والله أعلم .

الثانى : قال القاضى : معنى قوله تعالى : (وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ . . .) الآية ، إنك كنت على صدد الركون إليهم ، لقوة خدعهم وشدة احتيالهم . لكن أدركتك عصمتنا فمنعت أن تقرب من الركون ، فضلاً عن أن تركن إليهم. وهو صريح فى أنه عليه الصلاة والسلام ماهمّ بإجابتهم ، مع قوة الداعى إليها . ودليل على أن العصمة بتوفيق الله وحفظه .

الثالث : قال الزمخشرىّ : فى ذكر الكيدودة وتقليلها ، مع إتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف فى الدارين ، دليل بيّن على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله وارتفاع منزلته . وفيه دليل على أن أدنى مداهنة للغواة ، مضادة لله وخروج عن ولايته ، وسبب موجب لغضبه ونكاله . فعلى المؤمن ، إذا تلا هذه الآية أن يجثو عندها ويتدبرها . فهى جديرة بالتدبر . وبأن يستشعر الناظرُ فيها الخشيةَ وازدياد التصلب فى دين الله .

الرابع : جاء فى (حواشى جامع البيان) ما مثاله بالحرف : من الفوائد الجليلة فى هـذه الآية ، أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك، بعد القدرة على هدمها وإبطالها، يوماً. فإنها شعائر

---

(١) [١٠٩ / الكافرون / ١ و ٢] . (٢) [٦٨ / القلم / ٩] .
(٣) [٢٠ / طه / ١٣١] . (٤) [٦ / الأنعام / ٥٢] .

الكفر والشرك . وهى أعظم المنكرات فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة البتة . وهكذا حكم المشاهد التى بنيت على القبور التى اتخذت أوثاناً وطواغيت ، تعبد من دون الله . والأحجار التى تقصد للتعظيم والتبرك والنذور والتقبيل ، لايجوز إبقاء شىء منها على وجه الأرض ، مع القدرة على إزالته . وكثير منها بمنزلة اللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى ، وأعظم شرك عندها وبها . فإن اللات ـ على ما نقله ابن خزيمة عن مجاهد ـ رجل كان يلتّ لهم السويق فمات . فعكفوا على قبره يعبدونه ويعظمونه . ولم يقولوا إن اللات خلقت السموات والأرض . بل كان شركهم باللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى ، كشرك أهل الشرك من أرباب المشاهد بعينه، من النذور لها والشرك بها والتمسح بها وتقبيلها واستلامها. وما طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا مجرد مسّ آلهتهم . كما قالوا نؤمن بك إن تمس آلهتنا . وما التمسوا منه إلا التمتيع باللات سنة من غير عبادة ، فتوعد بهذا الوعيد الشديد والتهديد الأكيد أن لو ركن إليهم . فالرزية كل الرزية ماابتلى به القبوريون من أهل هذا الزمان . فإنهم لم يدعوا شيئاً مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام ، إلا فعلوه بالقبور . فإنا لله وإنا إليه راجعون . بل كثير منهم، إذا توجهت عليه يمين من جهة خصمه، حلف بالله فاجراً، فإذا قيل له بعد ذلك: احلف بشيخك . أو بمعتقدك الولىّ الفلانىّ تلكأ وأبى واعترف بالحق. وهذا من أبين الأدلة الدالة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال (ثالث ثلاثة) فيا علماء الدين ! ويامولك المسلمين ! أىّ رزء للإسلام أشد من الكفر؟ وأىّ بلاء لهذا الدين أضرّ عليه من عبادة غير الله ؟ وأىّ مصيبة يصاب بها المسلمون تعدل هذه ؟ وأىّ منكر يجب إنكاره إن لم يكن إنكار هذا الشرك البيّن واجباً ؟ فاللهم ! انصر من نصر الحق واهدنا إلى سواء السبيل . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ، وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا)

[٧٧] (سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ، وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا)

« وَإِن كَادُوا » أى أهل مكة « لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ » أى ليزعجونك بعداوتهم من مكة « لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ » أى ولو خرجت لا يبقون بعد خروجك « إِلَّا قَلِيلًا » أى زماناً قليلاً « سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا » يعنى أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم ، فسنة الله أن يهلكهم . ونصبت نصب المصدر المؤكد . أى سنّ الله ذلك سنة « وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا » أى تغييراً . ولا يخفى أن المراد بعدم لبثهم ، إهلاكهم . سواء كان بالاستئصال، أوْ لا . قال ابن كثير : وكذلك وقع . فإنه ﷺ لم يكن بين هجرته من بين أظهرهم ، بعد ما اشتد أذاهم له ، إلا سنة ونصف، حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد . فأمكنه منهم ، وسلطه عليهم ، وأظفره بهم . فقتل أشرافهم وسبى سراتهم . ولهذا قال تعالى (سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا) أى هكذا عادتنا فى الذين كفروا برسلنا وآذوهم . يخرج الرسول من بين أظهرهم ويأتيهم العذاب . ولولا أنه ﷺ رسول الرحمة ، لجاءهم من النقم فى الدنيا ما لا قبل لأحد به . كما قال تعالى[1] (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ) .

وقوله تعالى :

---

(١) [٨ / الأنفال / ٣٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ، إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا)

« أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ، إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا » لما ذكر تعالى ، قبلُ ، كيد المشركين وكيدودتهم استفزازه من الأرض ، أمره بأن يستعين بإقامة الصلوات والإقبال على عبادته تعالى ، والابتهال إليه على دفع كيدهم ومكرهم ، وتأييده عليهم . ونظيره قوله تعالى[١] (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ* فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ) وقوله[٢] (فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ، وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ) وقوله[٣] (وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ) هذا من حيث نظم الآية مع ما قبلها . وأما معناها ، فقوله (لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ) أى لزوالها . قال ابن تيمية : الدلوك الزوال عند أكثر السلف وهو الصواب . واللام للتأقيت . أى بيان الوقت بمعنى (بعد) وتكون بمعنى (عند) أيضا . وقيل : للتعليل . لأن دخول الوقت سبب لوجوب الصلاة . وأما (غَسَقِ ٱلَّيْلِ) ، فهو اجتماع الليل وظلمته . وأما (قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ) . فهو صلاة الصبح . سميت قرآناً لأنه ركنها . كما سميت ركوعًا وسجودًا . فهو من تسمية الكل باسم جزئه المهمّ . فيدل على وجوب القراءة فيها صريحًا ، وفى غيرها بدلالة النص والقياس . ومعنى (مَشْهُودًا) يشهده ملائكة الليل والنهار . ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء . فهو فى آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار . أو يشهده الكثير من المصلين فى العادة ! ومن حقه أن يكون مشهودًا بالجماعة الكثيرة . والأكثرون على أن قوله تعالى (وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ)

(١) [١٥ / الحجر / ٩٧ و ٩٨] . (٢) [٢٠ / طه / ١٣٠] .
(٣) [٢ / البقرة / ٤٥] .

منصوب بالعطف على (الصلاة) أى : وأقم صلاة الفجر . وجوّز بعض النحاة نصبه على الإغراء . أى : وعليك قرآن الفجر أو الزم .

تنبيهات :

الأول : هـــذه الآية جامعة للصلوات الخمس ومواقيتها ، فدلوك الشمس يتناول الظهر والعصر تناولا واحداً . وغسق الليل يتناول المغرب والعشاء تناولا واحداً . وقرآن الفجر هى صلاة مفردة لا تجمع ولا تقصر . قيل : هذا يقتضى أن يكون الدلوك مشتركا بين الظهر والعصر . والغسق مشتركا بين المغرب والعشاء . فيدل على جواز الجمع مطلقاً بين الأولين ، وكذا بين الأخيرين . فالجواب : هو كذلك بعذر السفر أو المطر ونحوها . وأما فى غيرها فلا . وذلك لما بينته السنة من فعل كل واحدة فى الوقت الخاص بها ، إلا بعذر . قال الحافظ ابن كثير : قد بينت السنة عن رسول الله ﷺ تواترا من أفعاله وأقواله ، تفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم ، مما تلقوه خلفا عن سلف ، وقرنا بعد قرن ، كما هو مقرر فى مواضعه .

وقال العلامة أبو السعود : ليس المراد إقامتها فيما بين الوقتين على وجه الاستمرار ، بل إقامة كل صلاة فى وقتها الذى عين لها ببيان جبريل عليه السلام . كما أن أعداد ركعات كل صلاة موكولة إلى بيانه عليه السلام . ولعل الاكتفاء ببيان المبدأ والمنتهى فى أوقات الصلوات من غير فصل بينها ، لما أن الإنسان فيما بين هذه الأوقات على اليقظة . فبعضها متصل ببعض ، بخلاف أول وقت العشاء والفجر فإنه باشتغاله فيما بينهما بالنوم ، ينقطع أحدهما عن الآخر . ولذلك فصل وقت الفجر عن سائر الأوقات . انتهى .

والظاهر أن مستند من جوز الجمع فى الحضر مطلقاً هذه الآية ، مع أثر ابن عباس .

جاء فى (رحمة الأمة) ما مثاله : وعن ابن سيرين أنه يجوز الجمع من غير خوف ولا مرض لحاجة . مالم يتخذه عادة . واختار ابن المنذر وجماعة جواز الجمع فى الحضر من غير خوف ولا مطر ولا مرض . انتهى .

وقد روى الشيخان[١] وغيرهما عن ابن عباس قال: صلى النبيّ ﷺ بالمدينة سبعا وثمانيا: الظهر والعصر ، والمغرب والعشاء .

ومن رواية لمسلم : صلى الظهر والعصر جميعاً ، والمغرب والعشاء جميعاً ، من غير خوف ولا سفر . وكثير من الرواة حملوا ذلك على ليلة مطيرة . والمسألة شهيرة .

الثانى : قلنا إن هذه الآية إحدى الآيات التى جمعت الصلوات الخمس، ومنها قوله تعالى[٢]: (وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ) فالطرف الأول صلاة الفجر فإن صلاة الفجر فى النهار . فإن الصائم يصوم النهار . وهو يصوم من طلوع الفجر. والوتر تصلى بالليل وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم[٣]: صلاة الليل مثنى مثنى، فإذا خفت الصبح فأوتر بركعة. وإذا قيل : نصف النهار ، فالمراد به النهار المبتدئ من طلوع الشمس . فهذا فى هذا الموضوع ، ولفظ (النهار) يراد به من طلوع الفجر ، ويراد به من طلوع الشمس . لكن قوله (وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ) أريد به من طلوع الفجر بلا ريب ، لأن ما بعد طلوع الشمس ليس على المسلمين فيه صلاة واجبة ، بل ولا مستحبة . بل الصلاة فى أول الطلوع منهىٌّ عنها حتى ترتفع الشمس . وهل تستحب الصلاة لوقت الضحى أولا تستحب إلا لأمر عارض ؟ فيه نزاع ليس هذا موضعه . فعلم أنه أراد بالطرف الأول من طلوع الفجر . وأما الطرف الثانى

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩ ـ كتاب مواقيت الصلاة ، ١٢ ـ باب تأخير الظهر إلى العصر ، حديث رقم ٥٣٣ (عن ابن عباس) .

وأخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٥٥ (طبعتنا).

(٢) [١١ / هود / ١١٤] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى: ١٩ ـ كتاب التهجد، ١٠ ـ باب كيف كان صلاة النبيّ ﷺ، حديث رقم ٣١٤ عن عبد الله بن عمر .

وأخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ١٤٧ (طبعتنا).

فمن الزوال إلى الغروب . فجعل الصلاة فى هذا الوقت صلاة فى الطرف الثانى وأشرك بينهما فيه . ثم قال (وَزُلَفاً مِّنَ ٱلَّيْلِ) فأجمل المغرب والعشاء فى (زلفا من الليل) . وهى ساعات من الليل . فالمواقيت هنا ثلاثة .

وقال تعالى[١] (لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ، مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ) فذكر الفجر وذكر الظهر وذكر صلاة العشاء. فمن الظهيرة إلى ما بعد صلاة العشاء وقتان للصلاة . وقد ذكر الأول من هذا الوقت والآخر من هذا الوقت . وقد دل على المواقيت فى آيات أُخر كقوله تعالى[٢] (فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ) فتبين أن له التسبيح والحمد فى السموات والأرض ، حين المساء وحين الصباح وعشيًّا وحين الإظهار . فالمساء يتناول المغرب والعشاء ، والصباح يتناول الفجر، والعشىّ يتناول العصر . والإظهار يتناول الظهر .

وقال تعالى[٣](فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا، وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ) وفى الآية الأخرى[٤]: (قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ * وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ) فقبل طلوع الشمس هى صلاة الفجر . وقبل غروبها هى العصر. وبذلك فسّرها النبىّ ﷺ فى الحديث[٥] المتفق على صحته عن جرير بن عبدالله قال: كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال:

(١) [٢٤/ النور/ ٥٨]. (٢) [٣٠/ الروم/ ١٧و١٨]. (٣) [٢٠ / طه / ١٣٠].
(٤) [٥٠ / قَ / ٣٩و٤٠] . (٥) أخرجه البخارىّ فى: ٩ ـ كتاب مواقيت الصلاة، ١٦ ـ باب فضل صلاة العصر ، حديث ٣٥٨ .
وأخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٢١١ (طبعتنا) .

(إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر . فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا . ثم قرأ قوله تعالى : فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا). وقوله تعالى (وَمِنَ ٱلَّيْلِ) (وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ) مطلق فى آناء الليل ، يتناول المغرب والعشاء . أفاد ذلك تقيّ الدين ابن تيمية فى فتواه فى (المواقيت الكبرى) .

الثالث : هذه الآية من الآيات التى أمر تعالى فيها بإقامة الصلاة لوقتها . قال ابن تيمية عليه الرحمة ، فى فتواه المتقدمة : وقت الصلاة وقتان . وقت الرفاهية والاختيار . ووقت الحاجة والعذر . فالوقت فى حال الرفاهية خمسة أوقات كما فى صحيح مسلم عن عبد الله ابن عمرو ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال[1] (وقت الظهر ما لم يصر ظل كل شيء مثله . ووقت العصر ما لم تصفرّ الشمس . ووقت المغرب ما لم يغب نور الشفق . ووقت العشاء إلى نصف الليل . ووقت الفجر ما لم تطلع الشمس) . وقد روى هذا الحديث من حديث أبى هريرة فى السنن . ولم يرو عن النبى صلى الله عليه وسلم فى المواقيت حديث من قوله إلا هذا. وسائر ماروى فعل منه ، والأحاديث الصحيحة المتأخرة من فعله توافق هذا الحديث . ولهذا ما فى هذا الحديث من المواقيت هو الصحيح عند الفقهاء العارفين بالحديث . والنزاع بين العلماء فى آخر وقت الظهر ، وأول وقت العصر وآخره ، وآخر وقت المغرب ، وآخر وقت العشاء وآخر وقت الفجر . فالجماهير من السلف والخلف من فقهاء الحديث وأهل الحجاز ، وقت الظهر عندهم من الزوال إلى أن يصير ظل كل شيء مثله . سوى الفيء الذى زالت عليه الشمس ، وهذا مذهب مالك والشافعيّ وأحمد وأبى يوسف ومحمد . وقال أبو حنيفة: إلى أن يصير ظلّ كل شيء مثليه ، ثم يدخل وقت العصر عند الجمهور . وعند أبى حنيفة إنما يدخل إذا صار ظل كل شيء مثليه ، ونقل عنه ، أن ما بين المثل إلى المثلين ليس وقتاً لا للظهر ولا

(١) أخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٧٣ (طبعتنا).

للعصر . وعلى قول الجمهور ، فهل آخر هذا أول هذا أو بينهما قدر أربع ركعات مشترك ؟ فيه نزاع . فالجمهور على الأول ، والثانى منقول عن مالك . وإذا صار ظل كل شيء مثليه ، خرج وقت العصر فى إحدى الروايتين عن أحمد. وهو منقول عن مالك والشافعىّ مع خلاف فى مذهبهما . والصحيح أن وقتها ممتد بلا كراهة إلى اصفرار الشمس . وهو الرواية الثانية عن أحمد . كما نطق به حديث عبد الله بن عمرو[1] ، مما عمل به النبىّ ﷺ بالمدينة ، بعد عمله بمكة . وهذا قول أبى يوسف ومحمد . فلم يكن للعصر وقت متفق عليه . ولكن الصواب المقطوع به ، الذى تواترت به السنن واتفق عليه الجماهير ؛ أن وقتها يدخل إذا صار ظل كل شيء مثله . وليس مع القول الآخر نقل عن النبىّ ﷺ ، لاصحيح ولا ضعيف . ولكن الأمراء الذين كانوا يؤخرون الصلاة ، لمّا اعتادوا تأخير الصلاة ، واشتهر ذلك ، صار يظن من يظن أنه السنة . وقد احتج له بالمثل المضروب للمسلمين وأهل الكتاب . ولا حجة فيه لاتفاق أهل الحساب على أن وقت الظهر أطول من وقت العصر ، الذى أوّله إذا صار ظل كل شيء مثليه .

وأما أوقات الحاجة والعذر فهى ثلاثة: من الزوال إلى الغروب. ومن الغروب إلى الفجر. ومن الفجر إلى طلوع الشمس . فالأول وقت الظهر والعصر عند العذر . واتسع فيها وفيهما من وجهين : أحدهما تقديم العصر إلى وقت الظهر ، كما قدمها النبىّ ﷺ يوم عرفة . وكما كان يقدمها فى سفرة تبوك . إذا ارتحل بعد أن تزيغ الشمس . وتقديم العشاء إلى المغرب فى المطر. فهذا جمع تقديم. والثانى جمع تأخير، العصر فيها إلى الغروب. لقوله ﷺ فى الحديث الصحيح :[2] من أدرك ركعة من الفجر قبل أن تطلع الشمس فقد أدرك الفجر. ومن أدرك

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ٣٩٦٣ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٩ ـ كتاب مواقيت الصلاة ، ٢٨ ـ باب من أدرك من ركعة ، حديث رقم ٣٦٠ (عن أبى هريرة) . وأخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ١٦١ و١٦٢ و١٦٣ و١٦٥ (طبعتنا) .

ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك العصر. مع قوله ﷺ فى الحديث الصحيح[١]: (وقت العصر مالم تصفرّ الشمس) . وأنه لم يؤخر الصلاة قط إلى الاصفرار . ويوم الخندق كان التأخير إلى بعد الغروب . وهو منسوخ فى أشهر قولى العلماء بقوله تعالى[٢] ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ وهذا مذهب مالك والشافعىّ ، وأحمد فى أشهر الروايتين عنه. وقيل : يخير حال القتال فى التأخير والصلاة فى الوقت بحسب الإمكان . وهو الرواية الأخرى عنه . وقيل: بل يؤخرها . وهو قول أبى حنيفة أيضاً. فى الحديث الصحيح[٣] عنه ﷺ أنه قال (تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق . يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنى الشيطان ، قام فنقر أربعا ، لايذكر الله فيها إلا قليلا) فوصف صلاة المنافق بالتأخير إلى حين الغروب والنقر . فدل على المنع من هذا وهذا . فلما قال ﷺ هذا وهذا ، علم أن الوقت وقتان . فمن أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك مطلقاً . وليس له أن يؤخر إلى ذلك الوقت ، مع إمكان الصلاة قبله. بخلاف من لا يمكنه الصلاة قبل ذلك . كالحائض إذا طهرت . والمجنون يفيق. والنائم يستيقظ . والناسى يذكر . ودل تقديم العصر يوم عرفة على أنها تفعل فى موضع مع الظهر عقيب الزوال . ودل هـذا الحديث على أنها يُدرك وقتها بإدراك ركعة منها قبل الغروب . مع أنه بيّن بقوله وفعله ؛ أن وقتها إذا صار ظل كل شىء مثله . ما لم تصفر الشمس . فدل ذلك على أن هذا الوقت المختص بها ، وقت مع التمكن والرفاهية . ليس لأحد أن يؤخرها عنه ولا يقدمها عليه . وقد عرف من الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وأبى هريرة وابن عباس ؛ أنهم قالوا : (فى الحائض إذا طهرت قبل غروب الشمس) : تصلى الظهر والعصر . وإذا طهرت قبل طلوع الفجر ، صلت

---

(١) انظر الحاشية رقم (١) صفحة ٣٩٦٣ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٣٨] . (٣) أخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ١٩٥ (طبعتنا) عن أنس .

المغرب والعشاء . ولم يعرف عن صحابيّ خلاف ذلك . وبذلك أخذ الجمهور كمالك والشافعيّ وأحمد . وهذا مما يدل على أنه كان الصحابة ترى أن الليل عند العذر مشترك بين المغرب والعشاء إلى الفجر . والنصف الثانى عند العذر مشترك بين الظهر والعصر من الزوال إلى الغروب . كما دل على ذلك السنة والقرآن ـ يعنى الآية المذكورة وأمثالها مما سقناه قبل ـ والذين ينازعون الجمهور فى الوقت المشترك ، ويقولون ليس لكل منهما إلا وقت يخصها ، يقولون : الفرض إنما ثبت بالقرآن . والقرآن أوجب مطلق الذكر فى قوله[1] (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ) فلا موجب لخصوص التكبير عندهم . بل مطلق الذكر . وإن كان النبيّ ﷺ لم يصلّ قط إلا بتكبير . ولا أحد من خلفائه ولا أحد من أئمة المسلمين ولا آحادهم المعروفين يُعْرَف أنه صلى إلا بتكبير . ومع هذا فيجوزونه بمطلق الذكر . لأن القرآن مطلق فى الذكر . فيقال لهم : القرآن مطلق فى آناء الليل وفى غسق الليل . ومطلق فى الطرف الأول وفى الطرف الثانى ، فدل على جواز الصلاة فى هذا وهذا ، لو قُدّر أن النبيّ ﷺ داوم على التفريق ، فكيف إذا ثبت عنه أنه جمع بينهما فى الوقت غير مرة؟ وكذلك يقولون : قوله تعالى[2](ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟)مطلق. فهو الفرض. والطمأنينة إنما جاء بها خبرُ واحدٍ . فيفيد الوجوب دون الفرضية . وكذلك يقولون فى الفاتحة : إن القرآن مطلق فى إيجاب قراءة ماتيسر منه، مع أن النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين من بعده لم يصلّوا إلا بالفاتحة . ومع قوله: (لا صلاة إلا بأمّ القرآن)[3] . و(إن كل صلاة لم يقرأ فيها

---

(١) [٨٧ / الأعلى / ١٤] . (٢) [٢٢ / الحج / ٧٧] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ٩٥ ـ باب وجوب القراءة للإمام والمأموم فى الصلوات كلها ، حديث رقم ٤٦٠ (عن عُبَادة بن الصامت) .

وأخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث رقم ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ (طبعتنا) .

بأمّ القرآن فهى خداج . فهى خداج . فهى خداج)[١] . ويقولون : هذا يفيد الوجوب دون الفرضية . أو هذا خبرُ واحدٍ فلا يقيد به مطلق القرآن . ومعلوم أن القرآن مطلق فى الوقت المشترك أعظم من هذا ، وليس معهم عن النبىّ ﷺ ما يوجب فعل كل واحدة من الأربع فى الوقت الخاص إلا فعله المتواتر ، وقوله الذى هو من أخبار الآحاد . مع مافيه من الإجمال، كقوله[٢] لمّا بين المواقيت الخمسة (الوقت ما بين هذين) وقوله[٣] (ما بين هذين وقت) دلالته على وجوب الصلاة فى هـذا الوقت دون دلالة قوله : (لا صلاة إلّا بأمّ الكتاب) وقوله (من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم الكتاب فهى خداج) وكذلك قوله[٤] ﷺ فى الحديث الصحيح (سيكون بعدى أمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها . فصلوا الصلاة لوقتها. ثم اجعلوا صلاتكم معهم نافلة) ولهذا احتج أحمد على وجوب فعلها فى الوقت عند الرفاهية بقوله ﷺ (فصلوا الصلاة لوقتها) وهو الوقت الذى بيّنه لهم. والأمراء لم يكونوا يؤخرون صلاة النهار إلى الليل ، ولا صلاة الليل إلى النهار . وإنمـا كانوا يؤخرون الظهر إلى وقت العصر والعصر إلى آخر النهار . ودل هذا على أن من فعل هذا لم يقاتل . لأنهم سألوه عن الأمراء ، أنقاتلهم ؟ قال : (لا . ما صلوا) وهذه كانت صلاتهم . ودل على أن هذه الصلاة لا تجوز بحال ، وتفويت يوم الخندق منسوخ . وأما الجمع بينهما فى الوقت المشترك فهو ثابت بالسنة فى مواضع متعددة . وبعضها مما أجمع عليه المسلمون ، والآثار المشهورة عن الصحابة تبيّن أن الوقت المشترك وقت فى حال العذر . كقول عمر بن الخطاب (الجمع بين

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ٤٠ و ٤١ (طبعتنا) عن أبى هريرة.

(٢) أخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٧٨ (طبعتنا). عن أبى موسى . (٣) أخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٧٧ (طبعتنا) عن بُرَيدة . (٤) أخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٢٣٩ (طبعتنا) عن أبى ذرّ .

الصلاتين ، من غير عذر ، من الكبائر) فدل على أن الجمع بينهما للعذر جائز. وقال عبدالرحمن ابن عوف وابن عباس وأبو هريرة (فيمن طهرت فى آخر النهار): إنها تصلى الظهر والعصر. (وفيمن طهرت فى آخر الليل) : إنها تصلى المغرب والعشاء. وهو قول الثلاثة: مالك والشافعىّ وأحمد ، وأما التفويت فلا يجوز بحال . فمن جوز التفويت فى بعض الصور ، فقوله ضعيف ، وإن جوز الجمع . وأما من أوجب التفويت ومنع الجمع، فقد جمع فى قوله بين أصلين ضعيفين: بين إباحة ماحرمه الله ورسوله ، وتحريمه ما شرعه الله ورسوله . فإنه قد ثبت أن الجمع خير من التفويت . فهذا الأصل ينظم كثيراً من المواقيت . وتفويت العصر إلى حين الاصفرار ، وتفويت العشاء إلى النصف الثانى أيضا ، لايجوز إلا لضرورة ، والجمع بين الصلاتين خير من الصلاة فى هذا الوقت ، بل الصلاة بالتيمم قبل دخول وقت الضرورة خير من الصلاة بالوضوء فى وقت الضرورة . وقد نص على ذلك الفقهاء من أصحاب أحمد وغيره . وقالوا : لايجوز تأخيرها إلى الاصفرار . بل إذا لم يجد الماء إلا فيه ، فإنه يصلى بالتيمم قبل الاصفرار ، ولا يصليها حين الاصفرار بالوضوء . انتهى كلامه عليه الرحمة .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا)

« وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ » أمرٌ له بصلاة الليل ، إثر أمره بالصلوات الخمس . وفى « مِنْ » وجهان : أحدهما أنها متعلقة بـ (تهجد) أى تهجد بالقرآن بعض الليل . والثانى أنها متعلقة بمحذوف عطف عليه (فتهجد) . أى قم من الليل أى فى بعضه فتهجد بالقرآن . والتهجد ترك الهجود وهو النوم، و(تفعّل) يأتى للسلب كـ(تأثّم وتحرّج)، بمعنى ترك الإثم والحرج . قال الأزهرىّ : المعروف فى كلام العرب أن الهاجد النائم . وأما المتهجد فهو القائم إلى الصلاة من النوم . وكأنه قيل له (متهجد) لإلقائه الهجود عن نفسه. كما يقال للعابد (متحنث) لإلقائه الحنث عن نفسه . انتهى .

ونقل عن ابن فارس . أن معناه صلّ ليلا . وكذا عن ابن الأعرابىّ قال : هجد الرجل وتهجد ، إذا صلى بالليل . والمعروف الأول . والضمير فى (به) للقرآن من حيث هو ، لا بقيد إضافته إلى الفجر ، أو للبعض المفهوم من (من) والباء بمعنى (فى) أى تهجد فى ذلك البعض . وقوله تعالى (نَافِلَةً لَّكَ) أى عبادة زائدة لك على الصلوات الخمس .

قال الزمخشرىّ : وضع (نافلة) موضع (تهجدا) لأن التهجد عبادة زائدة . فكان التهجد والنافلة يجمعهما معنى واحد . والمعنى أن التهجد زيد لك على الصلوات المفروضة ، فريضة عليك خاصة دون غيرك . لأنه تطوع لهم . انتهى .

قال أبو السعود : ولعله هو الوجه فى تأخير ذكرها عن ذكر صلاة الفجر ، مع تقدم وقتها على وقتها .

وقوله تعالى : « عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُودًا » أى يحمده القائم فيه وكل من رآه وعرفه . وهو مطلق فى كل ما يجلب الحمد من أنواع الكرامات . والمشهور أنه مقام الشفاعة العظمى ، للفصل بين الخلائق الذى يحمده فيه الأولون والآخرون . كما وردت به الأخبار الصحيحة[1] . ومعنى النظم الكريم على هذا : كما انبعثت من النوم الذى هو الموت الأصغر ، بالصلاة والعبادة ، فسيبعثك ربك من بعد الموت الأكبر ، مقامًا محمودًا ، عندك وعند جميع الناس . وفيه تهوين لمشقة قيام الليل . أشار له أبو السعود .

تنبيه :

قال ابن جرير[2] ذهب آخرون إلى أن ذلك المقام المحمود ، الذى وعد الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبعثه إياه ، هو أن يجلسه معه على عرشه ، رواه ليث عن مجاهد . وقد شنع الواحدىّ على القائل به ، مع أنه رواه عن ابن مسعود أيضاً وعبارته ـ على ما نقلها الرازىّ ـ

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ١٧ ـ سورة الإسراء ، حديث رقم ٧٨٧ ، عن ابن عمر .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٤٥ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وهذا قول رذل موحش فظيع ، ونص الكتاب ينادى بفسادهذا التفسير ويدل عليه وجوه:

الأول أن البعث ضد الإجلاس ، يقال : بعثت النازل والقاعد فانبعث . ويقال : بعث الله الميت ، أى أقامه من قبره . فتفسير البعث بالإجلاس تفسير للضد بالضد وهو فاسد .

الثانى أنه تعالى قال (مَقَامًا مَّحْمُودًا) ولم يقل مقعداً . والمقام موضع القيام لا موضع القعود .

الثالث لو كان تعالى جالساً على العرش ، بحيث يجلس عنده محمد عليه الصلاة والسلام ، لكان محدوداً متناهياً . ومن كان كذلك فهو محدث .

الرابع يقال : إن جلوسه مع الله على العرش ليس فيه كثير إعزاز ، لأن هؤلاء الجهال والحمقى يقولون (فى كل أهل الجنة) : إنهم يزورون الله تعالى وإنهم يجلسون معه وإنه تعالى يسألهم عن أحوالهم التى كانوا عليها فى الدنيا ، وإذا كانت هـذه الحالة حاصلة عندهم لكل المؤمنين ، لم يكن لتخصيص محمد ﷺ بها مزيد شرف ورتبة .

الخامس أنه إذا قيل: السلطان بعث فلانا ، فهم منه أنه أرسله إلى قوم لإصلاح مهماتهم. ولا يفهم منه أنه أجلسه مع نفسه . فثبت أن هذا القول كلام رذل سقط ، لا يميل إليه إلا إنسان قليل العقل عديم الدين . انتهى كلام الواحدىّ .

وليته اطلع على ما كتبه ابن جرير[1] حتى يمسك من جماح يراعه ويبصر الأدب مع السلف مع المخارج العلمية لهم . وهاك ما قاله ابن جرير رحمه الله (بعد ما نقل عن مجاهد قوله المتقدم):

وأولى القولين بالصواب ، ما صح به الخبر عن رسول الله ﷺ أنه مقام الشفاعة ـ ثم قال ـ وهـذا وإن كان هو الصحيح فى القول ، فى تأويل المقام المحمود ، لما ذكرنا من الرواية عن رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين . فإن ماقاله مجاهد من أن الله يقعد محمداً صلى الله عليه وسلم على عرشه ، قول غير مدفوع صحته . لامن جهة خبر ولا نظر . وذلك لأنه لاخبر

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٧ من الجزء الخامس عشر من تفسير الطبرىّ (طبعة الحلبىّ الثانية).

عن رسول الله ﷺ ، ولاعن أحد من أصحابه ، ولاعن التابعين ، بإحالة ذلك . فأما من جهة النظر فإن جميع من ينتحل الإسلام إنما اختلفوا فى معنى ذلك على أوجه ثلاثة : فقالت فرقة منهم: الله عز وجل وجل بائن من خلقه، كان قبل خلقه الأشياء، ثم خلق الأشياء فلم يماسّها، وهو كما لم يزل ، غير أن الأشياء التى خلقها ، إذا لم يكن هو لها مماسًّا ، وجب أن يكون لها مباينا. إذ لا فعّال للأشياء إلا وهو مماس للأجسام أو مباين لها، قالوا: فإذ كان ذلك كذلك، وكان الله عز وجل فاعل الأشياء ، ولم يجز فى قولهم أنه يوصف بأنه مماس للأشياء ، وجب بزعمهم أنه لها مباين ـ فعلى مذهب هؤلاء سواء أقعد محمداً ﷺ على عرشه أو على الأرض ، (إذ كان من قولهم إن بينونته من عرشه وبينونته من أرضه بمعنى واحد، فى أنه بائن منهما كليهما، غير مماس لواحد منهما) وقالت فرقة أخرى: كان الله تعالى ذكره قبل خلقه الأشياء، لا شىء يماسه ولا شىء يباينه ، ثم خلق الأشياء فأقامها بقدرته وهو كما لم يزل قبل خلقه الأشياء لا شىء يماسه ولا شىء يباينه . فعلى قول هؤلاء أيضاً سواء أقعد محمداً ﷺ على عرشه أو على أرضه (إذ كان سواء على قولهم . عرشه وأرضه ، فى أنه لا مماس ولا مباين لهذا ، كما أنه لا مماس ولا مباين لهذه) .

وقالت فرقة أخرى: كان الله عز ذكره قبل خلقه الأشياء لاشىء يماسه ولا شىء يباينه. ثم أحدث الأشياء وخلقها، فخلق لنفسه عرشاً استوى عليه جالساً وصار له مماسًّا، كما أنه قد كان قبل خلقه الأشياء لاشىء يرزقه رزقاً ولاشىء يحرمه ذلك. ثم خلق الأشياء فرزق هذا وحرم هذا وأعطى هذا ومنع هذا . قالوا: فكذلك كان قبل خلقه الأشياء، لاشىء يماسه ولا يباينه. وخلق الأشياء فماسّ العرش بجلوسه عليه دون سائر خلقه. فهو مماسّ ماشاء من خلقه ومباين ماشاء منه: فعلى مذهب هؤلاء أيضاً سواء أقعد محمداً على عرشه أو أقعده على منبر من نور ، إذ كان من قولهم: أن جلوس الرب على عرشه ليس بجلوس يشغل جميع العرش، ولا فى إقعاد محمد ﷺ موجباً له صفة الربوبية ، ولا مخرجه من صفة العبودية لربه . كما أن مباينة محمد ﷺ ما كان

مباينا له من الأشياء ، غير موجبة له صفة الربوبية ولا مخرجته من صفة العبودية لربه . من أجل أنه موصوف بأنه مباين له ، كما أن الله عز وجل موصوف ـ على قول قائل هذه المقالة ـ بأنه مباين لها . هو مباين له . قالوا : فإذا كان معنى (مباين ومباين) لا يوجب لمحمد ﷺ الخروج من صفة العبودية ، والدخول فى معنى الربوبية ، فكذلك لا يوجب له ذلك قعوده على عرش الرحمن . فقد تبين إذًا بما قلنا أنه غير محال فى قول أحد ممن ينتحل الإسلام ما قاله مجاهد ، من أن الله تبارك وتعالى يقعد محمداً على عرشه ، فإن قال قائل : فإنا لا ننكر إقعاد الله محمداً على عرشه، وإنما ننكر إقعاده معه «حدثنى» عباس بن عبد العظيم قال : حدثنا يحيى ابن كثير عن الجريرى ، عن سيف السدوسىّ عن عبد الله بن سلام قال ، إن محمداً صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، على كرسى الرب ، بين يدى الرب تبارك وتعالى . وإنما ينكر إقعاده إياه معه قيل : أفجائز عندك أن يُقعده عليه لا معه ؟ فإن أجاز ذلك صار إلى الإقرار بأنه إما معه أو إلى أنه يقعده ، والله للعرش مباين ، أَوْلا مماسٌّ ولا مباين ، وبأىّ ذلك قال ، كان منه دخولًا فى بعض ما كان ينكره . وإن قال : ذلك غير جائز منه ، خروجاً من قول جميع الفرق التى حكينا قولهم ، وذلك فراق لقول جميع من ينتحل الإسلام : إذ كان لا قول فى ذلك إلا الأقوال الثلاثة التى حكيناها . وغير محال فى قول منها ما قال مجاهد فى ذلك . انتهى كلام ابن جرير رحمه الله .

وأقول : لك أن تجيب أيضا عن إيرادات الواحدىّ الخمسة ، التى أفسد بها قول مجاهد . أما جواب إيراده الأول ، فإن مجاهدا لم يفسر مادة البعث وحدها بالإجلاس . وإنما فسر بعثه المقام المحمود بما ذكر .

وعن الثانى : بأن المقام هو المنزلة والقدرة والرفعة ، معروف ذلك فى اللغة .

وعن الثالث : بدفع اللازم المذكور ، لأنه كما اتفق على أن له ذاتا لا تماثلها الذوات ، فكذلك كل ما يوصف به مما ورد فى الكتاب والآثار ، فإنه لا يماثل الصفات . ولا يجوز قياس الخالق على المخلوق .

وعن الرابع : بأنه مكابرة . إذ كل أحد يعرف ـ فى الشاهد ـ لو أن ملكاً استدعى جماعة للحضور لديه ، ورفع أفضلهم على عرشه ، أن المرفوع ذو مقام يفوق به الكل .

وعن الخامس : بأنه من واد آخر غير ما نحن فيه ، إذ لا بعث لإصلاح المهمات فى الآخرة ، وإنما معنى الآية : إنه يرفعك مقاماً محموداً . وذلك يصدق على ما قاله مجاهد . وما قاله الأكثر . فتأمل وأنصف . وقد أنشد الحافظ الذهبىّ فى كتابه (العلوّ لله العظيم) للإمام الدارقطنىّ فى ترجمته ، قولَه :

حديث الشفاعة فى أحمدٍ ... إلى أحمدِ المصطفَى نُسْنِدُهْ
وأما حديثٌ بإقعاده ... على العرش أيضا فلا نَجْحَدُهْ
أمِرُّوا الحديثَ على وجهِهِ ... ولا تُدخلوا فيه ما يُفسِدُهْ

وقال الذهبىّ فى كتابه المنوه به، فى ترجمة (محمد بن مصعب) العابد شيخ بغداد ما مثاله: وقال المروذىّ : سمعت أبا عبد الله الخفاف . سمعت ابن مصعب وتلا (عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا) قال : نعم يقعده على العرش ـ ذكر الإمام أحمدُ محمدَ بن مصعب فقال: قد كتبت عنه . وأىّ رجل هو ! قال الذهبىّ : فأما قضية قعود نبينا على العرش ، فلم يثبت فى ذلك نص ، بل فى الباب حديث واهٍ . وما فسر به مجاهد الآية ، كما ذكرناه ، فقد أنكره بعض أهل الكلام . فقام المروذىّ وقعد بالغ فى الانتصار لذلك وجمع فيه كتاباً وطُرقَ قول مجاهد ، من رواية ليث بن أبى سليم ، وعطاء بن السائب ، وأبى يحيى القتات وجابر ابن يزيد. وممن أفتى فى ذلك العصر ، بأن هذا الأثر يُسَلَّم ولا يعارض، أبو داود السجستانىّ صاحب السنن وإبراهيم الحربىّ وخلْق . بحيث إن ابن الإمام أحمد قال عقيب قول مجاهد : أنا منكرٌ على كل من رد هذا الحديث . وهو عندى رجل سوء متّهم . سمعته من جماعة . وما رأيت محدثاً ينكره . وعندنا إنما تنكره الجهمية . وقد حدثنا هرون بن معروف . ثنا محمد بن فضيل عن ليث ، عن مجاهد فى قوله (عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا)

قال : يقعده على العرش . فحدثت به أبى رحمه الله فقال لم يُقدَّرْ لى أن أسمعه من ابن فضيل : بحيث إن المروذىّ روى حكايةً بنزولٍ، عن إبراهيم بن عرفة. وسمعت ابن عمير يقول: سمعت أحمد ابن حنبل يقول : هذا قد تلقته العلماء بالقبول . وقال المروذىّ: قال أبو داود السجستانىّ : ثنا ابن أبى صفوان الثقفىّ . ثنا يحيى بن أبى كثير . ثنا سلم بن جعفر ، وكان ثقة، ثنا الجريرىّ . ثنا سيف السدوسىّ عن عبد الله بن سلام، قال : إذا كان يوم القيامة جئ بنبيكم ﷺ حتى يجلس بين يدى الله عزّ وجلّ على كرسيه . . الحديث . وقد رواه ابن جرير فى تفسيره . (أعنى قول مجاهد) . وكذلك أخرجه النقاش فى تفسيره . وكذلك رد شيخ الشافعية ابن سريج على من أنكره . بحيث إن الإمام أبا بكر الخلّال قال فى كتاب (السنة) من جمعه : أخبرنى الحسن بن صالح العطار . عن محمد بن علىّ السراج ، قال : رأيت النبىّ ﷺ فى النوم فقلت : إن فلاناً الترمذىّ يقول : إن الله لا يقعدك معه على العرش ، ونحن نقول : بل يقعدك . فأقبل علىّ شبه المغضب وهو يقول: بلى، والله ! بلى، والله ! يقعدنى على العرش. فانتبهت . بحيث إن الفقيه أبا بكر أحمد بن سليمان النجاد المحدّث قال (فيما نقله عنه القاضى أبو يعلى الفراء) : لو أن حالفاً حلف بالطلاق ثلاثاً ؛ إن الله يقعد محمداً ﷺ على العرش ، واستفتانى ، لقلت له : صدقت وبررت .

قال الذهبىّ : فأبصر ، حفظك الله من الهوى ، كيف آل الغلوّ بهذا المحدث إلى وجوب الأخذ بأثر منكر . واليوم يردّون الأحاديث الصريحة فى العلوّ . بل يحاول بعض الطغام أن يرد . قوله تعالى[1] (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) انتهى . وقوله تعالى:

---

(١) [٢٠ / طه [٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا)

[٨١] (وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ، إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

« وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ » أى مدخلًا حسناً مرضيًّا بلا آفة « وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ » أى مُخرجاً حسناً مرضيًّا من غير آفة الميـل إلى النفس ، ولا الضلال بعد الهدى . « وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا » أى عزًّا ناصرًا للإسلام على الكفر ، مظهرًا له عليه .

وقد رأى المهايمىّ ارتباط الآية بما قبلها فى معناها حيث قال : (وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي) أى فى هذه العبادات فإنها لا توصلك إلى المقام المحمود ، إلا إذا صدق دخولك فيها وخروجك عنها. ولا يتم إلا بإمداد الله بعد استمدادك منه . وقولك (رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ) أى بمشاهدتك فى هذه العبادات ، وتخليتى عن الرياء والعجب ، وتصفيتى بإخلاص العمل ، وإخلاص طلب الأجر ، ورؤية المنة لله ، ورؤية التقصير فيها . (وَأَخْرِجْنِي) عنها (مُخْرَجَ صِدْقٍ) فلا تستعملنى فيما يحبطها علىَّ ، ولا تردنى على نفسى . وإذا غلبنى الشيطان أو النفس أو الخلق ، أو وردت علىَّ شبهة ، فاجعل لى من لدنك ، لا من عند فكرى ، (سُلْطَـٰنًا) أى حجة (نَّصِيرًا) ينصرنى على ما ذكر . ليبقى علىّ عبادتى فيوصلنى إلى المقام المحمود . انتهى .

واللفظ الكريم محتمل لذلك . ويظهر لنا أنه إشارة للهجرة كما ستراه .

« وَقُلْ » أى استبشارًا بقرب الظفر والنصر ، وترهيباً للمشركين « جَآءَ ٱلْحَقُّ » وهو الوعد بالسلطان النصير والإسلام ودولته « وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ » أى ذهب وهلك . وهو الشرك وجولته « إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا » أى مضمحلًّا غير ثابت فى كل وقت .

تنبيه :

سياق هذه الآيات، مع سباقها أعنى قوله تعالى (وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ) يدل على أن نزولها فى أوقات الاهتمام للهجرة إلى المدينة ، ومبارحة مكة ، وأنه تعالى أمر نبيَّه بأن يتهل إليه فى تيسير إدخاله لمهاجَره على ما يرضيه ، وإخراجه من بلده كذلك . وأن يجعل له حماية من لدنه ، تعزّ جانبه وتعصمه ممن يرومه بسوء .

وأسلوب التنزيل العزيز فى مثل هذا الدعاء ، هو إرادة الخبر بحصول المدعوّ ، ومشيئة الله بوقوعه عن قرب . ولذلك عقبه بقوله (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ) إعْلَاماً بأن الأمر تم ، والفرج جاء ، ودحر الباطل ورجع إلى أصله ، وهو العدم .

روى الحافظ أبو يعلى عن جابر رضى الله عنه قال : دخلنا مع رسول الله ﷺ مكة . وحول البيت ثلاثمائة وستون صنما ، تعبد من دون الله . فأمر بها رسول الله ﷺ فأكبت على وجوهها . وقال (جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) ورواه الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود ، بنحوه .

قال فى (الإكليل) فيه استحباب تلاوة هذه الآية عند إزالة المنكر .

ثم بيّن تعالى خسار المشركين ، بإعراضهم عما يشفى أمراضهم المعنوية ، وهو القرآن الكريم ، ونجاح المؤمنين بالاستشفاء بهداه ورحمته ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا)

« وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا » أى وننزل عليك من القرآن مايستشفى به من الجهل والضلالة . ورحمة ببيان الحقائق وإقامة البراهين للمؤمنين به ، دون الكافرين . لأن المؤمنين يعملون بما فيه من فرائض الله

وشرائعه . فيدخلهم الجنة وينجّيهم من العذاب . فهو لهم رحمة ونعمة . ولا يزيد الظالمين ، بكفرهم وشركهم ، إلا خسارًا . أى إهلاكا . لأنهم كلماجاءهم أمر من الله أو نهى ، كفروا به ، فزادهم خسارًا إلى ما كانوا فيه قبلُ ، ورجسًا إلى رجسهم .

قال الشهاب : (الشفاء) استعارة تصريحية أو تخييلية . بتشبيه الكفر بالمرض . و(من) بيانية . قدمت على المبيّن وهو (ما) اعتناء .

تنبيه :

ذهب بعضهم إلى أن القرآن مما يستشفى به من الأمراض الحسّية لهذه الآية . بحمل قوله (شِفَآءٌ) على معنيين من باب عموم المجاز . أو حمل المشترك على معنييه ، وممن قرر ذلك الرازىّ . وعبارته : اعلم أن القرآن شفاءمن الأمراض الروحانية . وشفاء أيضاً من الأمراض الجسمانية . أما كونه شفاء من الأمراض الروحانية فظاهر . وذلك لأن الأمراض الروحانية نوعان : الاعتقادات الباطلة . والأخلاق المذمومة . أما الاعتقادات الباطلة ، فأشدها فساد الاعتقادات فى الإلهيات والنبوّات والمعاد والقضاء والقدر . والقرآن مشتمل على دلائل المذهب الحق فى هذه المطالب ، وإبطال المذاهب الباطلة فيها . لا جرم كان شفاء من هذا النوع من المرض الروحانىّ . وأما الأخلاق المذمومة ، فالقرآن مشتمل على تفصيلها وتعريف ما فيها من المفاسد ، والإرشاد إلى الأخلاق الفاضلة الكاملة ، والأعمال المحمودة . فكان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض . فثبت أن القرآن شفاءمن جميع الأمراض الروحانية .

وأما كونه شفاء من الأمراض الجسمانية ، فلأن التبرك بقراءته يدفع كثيراً من الأمراض . ولما اعترف الجمهور من الفلاسفة وأصحاب الطلسمات بأن لقراءة الرقى المجهولة والعزائم التى لايفهم منها شىء ، آثارا عظيمة فى تحصيل المنافع ودفع المفاسد ـ فَلَأَنْ تكونَ قراءة هذا القرآن العظيم ، المشتمل على ذكر جلال الله وكبريائه ، وتعظيم الملائكة المقربين ، وتحقير المردة والشياطين ، سبباً لحصول النفع فى الدين والدنيا ـ كان أولى . ويتأكد ما

ذكرنا بحديث[1] (من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله تعالى) . وأما كونه رحمة للمؤمنين، فاعلم أنا بينا أن الأرواح البشرية مريضة بسبب العقائد الباطلة والأخلاق الفاسدة . والقرآن، منه ما يفيد الخلاص من شبهات الضالين وتمويهات المبطلين ، وهو الشفاء . ومنه ما يفيد تعليم كيفية اكتساب العلوم العالية والأخلاق الفاضلة ، التى بها يصل الإنسان إلى جوار رب العالمين ، والاختلاط بزمرة الملائكة المقربين ، وهو الرحمة . ولما كانت إزالة المرض مقدمة على السعى فى تكميل موجبات الصحة ، لاجرم بدأ الله تعالى ، فى هذه الآية، بذكر الشفاء ، ثم أتبعه بذكر الرحمة . انتهى .

وقال الإمام ابن القيّم فى (زادالمعاد) فى بحث الأدوية والأغذية المفردة ، التى جاءت على لسانه ﷺ، فى حرف القاف: (قرآن): قال الله تعالى: وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ . والصحيح أن (مِنْ) ههنا لبيان الجنس ، لا للتبعيض. وقال تعالى[2](يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ) فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية . وأدواء الدنيا والآخرة . وما كل أحد يؤهّل ولا يوفق للاستشفاء به . وإذا أحسن العليل التداوى به ، ووضعه على دائه ، بصدق وإيمان وقبول تام ، واعتقاد جازم ، واستيفاء شروطه ـ لم يقاومه الداء أبداً . وكيف تقاوم الأدواء كلامَ رب الأرض والسماء ، الذى لو أنزل على الجبال لصدعها ، أو على الأرض لقطعها . فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفى القرآن سبيل للدلالة على دوائه وسببه والحِمْية منه ، لمن رزقه الله فهما فى كتابه . فمن لم يشفه القرآن فلا شفاه الله . ومن لم يكفه فلا كفاه الله .

ثم قال فى (حرف الكاف): ورخص جماعة من السلف فى كتابة بعض القرآن وشربه، وجعل ذلك من الشفاء الذى جعل الله فيه . ثم ذكر ما كان يكتبه شيخ الإسلام ابن تيمية للرعاف . فانظره .

(١) لم أقف على هذا الحديث . (٢) [١٠ / يونس / ٥٧] .

وذكر ، قبلُ ، فى فاتحة الكتاب ، من سرّ كونها شفاءً ، حقائق بديعة . وكذا فى بحث الرقى . وذكر أيضا أن من الأدوية التى تشفى من الأمراض ، ما لم يهتد إليها عقول أكابر الأطباء ، ولم تصل إليها علومهم وتجاربهم وأقيستهم ، من الأدوية القلبية والروحانية ، وقوة القلب واعتماده على الله والتوكل عليه والالتجاء إليه . والانطراح والانكسار بين يديه ، والتذلل له والصدقة والصلاة والدعاء والتوبة والاستغفار ، والإحسان إلى الخلق وإغاثة الملهوف والتفريج عن المكروب . فإن هذه الأدوية قد جربتها الأمم على اختلاف أديانها ومللها . فوجدوا لها من التأثير فى الشفاء ما لم يصل إليه علم أعلم الأطباء ، ولا تجربته ولا قياسه . وقد جرّبنا نحن وغيرنا من هذا أمورًا كثيرة . ورأيناها تفعل ما لا تفعل الأدوية الحسيّة . وهذا جارٍ على قانون الحكمة الإلهية ، ليس خارجاً عنها . ولكن الأسباب متنوّعة . فإن القلب متى اتصل برب العالمين ، وخالق الداء والدواء ، ومدبّر الطبيعة ومصرّفها على مايشاء ، كانت له أدوية أخرى غير الأدوية التى يعاينها القلب البعيد منه ، المعرض عنه . وقد علم أن الأرواح متى قويت وقويت النفس والطبيعة ، تعاونا على دفع الداء وقهره . فكيف ينكر لمن قويت طبيعته ونفسه ، وفرحت بقربها من بارئها وأنسها به وحبّها له وتنعمها بذكره ، وانصراف قواها كلها إليه ، وجمعها عليه ، واستعانتها به ، وتوكلها عليه ـ أن يكون ذلك لها من أكبر الأدوية ، ويوجب لها هذه القوة دفع الألم بالكلية . ولا ينكر هذا إلا أجهل الناس وأعظمهم حجاباً وأكثفهم نفساً ، وأبعدهم عن الله وعن حقيقة الإنسانية .

وقد أسهب ، عليه الرحمة ، أيضا فى كتاب (إغاثة اللهفان) فى بيان تضمن القرآن لأدوية القلب وعلاجه من جميع أمراضه ، بما تنبغى مراجعته ، ليزداد المريد علما .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ، وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا)

« وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا » إشارة إلى السبب فى وقوع هؤلاء الضالين فى أودية الضلال . وهو حب الدنيا وإيثارها على الأخرى ، وكفران نعمه تعالى . بالإعراض عن شكرها ، والجزع واليأس من الفرج عند مس شرٍّ قضى عليه . وكل ذلك مما ينافى عقد الإيمان . فإن المؤمن ينظر بعين البصيرة، ويشاهد قدرة الله تعالى فى كلتا الحالتين . ويتيقن فى الحالة الأولى ؛ أن الشكر رباط النعم . وفى الثانية ؛ أن الصبر دفاع النقم . فيشكر ويصبر . ويعلم أن المنعم يقدر ، فلم يعرض عند النعمة بطرًا وأشرًا . ولم يغفل عن المنعم ولم يجزع عند النقمة جزعًا وضجرًا .

فالآية وصف للجنس باعتبار بعض أفراده ممن هو على هذه الصفة . كقوله تعالى[1] : (وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) .

قال الزمخشرىّ : (وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ) تأكيدٌ للإعراض . لأن الإعراض عن الشىء أن يُوَلّيه عرض وجهه . والنأى بالجانب : أن يلوى عنه عطفه ويوليه ظهره . أو أراد الاستكبار ، لأن ذلك من عادة المستكبرين .

وقوله تعالى :

---

(١) [١١ / هود / ٩ـ١١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا)

« قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ » أى على مذهبه وطريقته وخليقته وملكته الغالبة عليه ، الحاصلة له من استعداد حقيقته ، التى تشاكل حاله فى الهدى والضلالة . من قولهم (طريق ذو شواكل) وهى الطرق التى تتشعب منه لتشاكلها . أى تشابهها فى الشكل . فسميت عادة المرء بها ، لأنها تشاكل حاله . والدليل عليه قوله تعالى « فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا » أى أسدّ مذهباً وطريقة ، من العاملين : عامل الخير بمقتضى سجية القلب الفاضلة ، وعامل الشر بمقتضى طبيعة النفس ، فيجازيهما بحسب أعمالهما .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ، قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)

« وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ » قال القاشانىّ : أى الذى يحيا به بدن الإنسان ويدبره « قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى » أى ليس من عالم الخلق حتى يمكن تعريفه للظاهريين البدنيين ، الذين لا يتجاوز إدراكهم الحس والمحسوس ، بالتشبيه ببعض ما شعروا به ، والتوصيف . بل من عالم الأمر ، أى الإبداع الذى هو عالم الذوات المجردة عن الهيولى ، والجواهر المقدسة عن الشكل واللون والجهة والأين . فلا يمكنكم إدراكه أيها المحجوبون بالكون ، لقصور إدراككم وعلمكم عنه « وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » هو علم المحسوسات . وذلك شىء نزر حقير بالنسبة إلى علم الله تعالى والراسخين فى العلم ـ هذا ماقاله القاشانىّ ـ وحاصل الجواب عليه : أن الروح موجود محدَث بأمره تعالى بلا مادة ، وتولد من أصل كأعضاء الجسد ،

حتى يمكن تعريفه ببعض مبادئه ، بل هو من عالم الأمر لا من عالم الخلق . فيكون الاقتصار فى الجواب على قوله : (قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى) كما اقتصر موسى فى جواب قول فرعون (وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ)[١] على قوله[٢] (رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) إعلاماً بأن إدراكه بالكُنْهِ على ما هو عليه ، لا يعلمه إلا الله تعالى . وأنه شىء بمفارقته يموت الإنسان . وبملازمته له يبقى . كما أومأ إليه قوله تعالى : (وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) أى علماً قليلاً تستفيدونه من طرق الحواس . وهو هذا القدر الإجمالىّ .

قال الشهاب : والسؤال ـ على هذا ـ عن حقيقتها . والجواب إجمالىّ بأنها من المبدعات من غير مادة . ولذا قيل : إنه من الأسلوب الحكيم . كما فى قوله[٣] : (يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ) إشارة إلى أن حقيقتها لا تعلم ، وإنما يعلم منها هـذا المقدار . فالمراد بـ (الأمر) على هذا التفسير (قول كن) ولذا قالوا لمثله : عالم الأمر . انتهى .

قال أبوالسعود عليه الرحمة : وليس هذا من قبيل قوله سبحانه[٤] : (إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) فإن ذلك عبارة عن سرعة التكوين . سواء كان الكائن من عالم الأمر أو من عالم الخلق . بل إنه من الإبداعيات الكائنة بمحض الأمر التكوينىّ من غير تحصلٍ من مادة . وحكى ، عليه الرحمة ، قولاً آخر وهو : أن الأمر بمعنى الشأن . قال : والإضافة للاختصاص العلمىّ لا الإيجادىّ ، لاشتراك الكل فيه . وفيها من تشريف المضاف ما لا يخفى . كما فى الإضافة الثانية من تشريف المضاف إليه . أى هو من جنس ما استأثر الله بعلمه من الأسرار الخفية التى لا يكاد يحوم حولها عقول البشر . وعليه ، فـ (من) بيانية أو تبعيضية . ويكون نهياً لهم عن السؤال عنها ، وتركا للبيان . وهذا رأى كثيرين . أمسكوا عن الخوض فيها ، وقالوا : إنها شىء استأثر الله بعلمه ولم يطلع أحداً

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢٣] .
(٢) [٢٦ / الشعراء / ٢٤] .
(٣) [٢ / البقرة / ١٨٩] .
(٤) [٣٦ / يس / ٨٢] .

من خلقه . فلا يجوز البحث عنها بأكثر من أنها شيء موجود ، بل غلا بعضهم وقال : إن الإفاضة فى بحث الروح بدعة فى الدين . إذ لم يبينه الله لرسوله بأكثر ممـا فى الآية . فالاشتغال بالتفتيش عنه غلوٌّ فيما لم يرد به قرآن ولم يقم عليه برهان ، وما كان كذلك فهو عناد .

وأجاب الخائضون فى بحثها ؛ بأن الآية لا يدل معناها على ما ذكر دلالة قطعية ، ولا دلالة فيها على المنع من الخوض فيها ، ولا على أنه ﷺ لم يكن يعلمها . وغاية الأمر أنه أمر بترك الجواب عنها تفصيلًا . إما لأن الإمساك عن ذلك كان عند اليهود السائلين عنها ، من دلائل نبوّته ﷺ ، أولأن سؤالهم كان تعنتاً . فإنها تطلق على معان : منها الراحة وبرد النسيم . وعلى جبريل والقرآن وعيسى عليه السلام والحياة والقلب والرحمة وغير ذلك . فأضمروا على أنه إذا أجاب بأحد هذه الأمور ، قالوا : لم نرده ، وإنما أردنا كـذا .

ثم الأقاويل فيها من الحـكماء والعلماء الأقدمين مختلفة . ولا يتم الجواب فى محل الخلاف . فأتى بالجواب مجملًا على وجه يصدق على كلٍّ من ذلك مرموزًا ، ليعلمه العلماء بالله . واقتضت المصلحة العامة منع الـكلام فيه لغيرهم . لأن الأفهام لا تحتمله . خصوصًا على طريقة الحـكماء . إذ من غلب على طبعه الجمود لا يقبله ولا يصدق به فى صفة البارى . فـكيف يصدق به فى حق الروح الإنسانىّ . بل قال بعض المدققين : إن فى الآية الجواب ببيان حقيقتها ، وأنها من إبداعاته الـكائنة بتـكوينه ، من غير سبق مادة ـ وهو ما ذكرناه أولا ـ وفى الجواب بذلك ما فيه الـكفاية لذوى البصائر والدراية . ومقنع لمن كان له فى النزاع ، إذا فُصِلَ ، مطمع . وقد استحسن بعضهم هذا الجواب وقال مذيلًا له : فيـكون قوله (قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) على أن السؤال عن حقيقتها ـ مطابقاً . إلا أنه إجمالىّ . أى من الممكنات التى يمكن الوقوف على حقائقها ، وإن كان بإعمال روية وإيقاظ فـكر كباقى عالم الأمر . وعلى أن السؤال عن قدمها وحدوثها كذلك . إلا أنه تفصيلىّ . وأيًّا ما كان ، فلم يترك

بيانها . ولو كانت مما لاسبيل إلى معرفته لقيل : (قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي) كما قيل فى الساعة، أو نحو ذلك. بل لو لم يكن السبيل لمعرفته، ولو بوجه ما، متيسّرًا لكثير من الناس، لم يكن لأمره بالتفكر فيها . والتبصر فى أمرها ، للاستدلال بها عليه، والتوصل بواسطة معرفتها إليه ، الذى هو الغاية القصوى والثمرة العظمى ـ من فائدة . بل كان عبثاً . فدل قوله تعالى[٢] (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِم) وقوله[٢] (وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ) ونحو ذلك ، أنها أمر تدركه العقول ، وبه يكون إليه تعالى الوصول .

ثم إن الذين خاضوا فى البحث عنها، أُثِرَت عنهم أقوال شتى. وقد أفردت لذلك تآليف قديمة وحديثة ، والذى يهمنا معرفته ما عول عليه الأئمة المدققون ، الذين نقبوا عن أقوال المتقدمين ، ونقدوها بمحك الكتاب والسنة ، فنبذوا ما يخالفهما وتمسكوا بما يوافقهما .

فمنهم الإمام ابن حزم . قال رحمه الله فى كتابه (الملل والنحل) بعد سرد مذاهب شتى : وذهب سائر أهل الإسلام والملل المقرّة بالمعاد ، إلى أن النفس جسم طويل عريض عميق ذات مكان . عاقلة مميزة مصرّفة للجسد . قال : وبهذا نقول . والنفس والروح اسمان لمسمى واحد ، ومعناهما واحد . ثم قال : وأما من ذهب إلى أن النفس ليست جسما ، فقولٌ يبطل بالقرآن والسنة وإجماع الأمة . فأما القرآن ، فإن الله عز وجل قال[٣] (هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ) وقال تعالى[٤] (ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ، لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ) وقال تعالى[٥] (كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ) فصح أن النفس هى الفعالة الكاسبة المجزية المخطئة . وقال تعالى[٦] (إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ) وقال تعالى[٧] (وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ) . وقال تعالى[٨] (وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ

(١) [٣٠ / الروم / ٨] . (٢) [٥١ / الذاريات / ٢١] .
(٣) [١٠ / يونس / ٣٠] . (٤) [٤٠ / غافر / ١٧] .
(٥) [٥٢ / الطور / ٢١] . (٦) [١٢ / يوسف / ٥٣] .
(٧) [٤٠ / غافر / ٤٦] . (٨) [٢ / البقرة / ١٥٤] .

فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌ ، بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ) وقال تعالى[١] (وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا ، بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ) فصح أن الأنفس ، منها ما يعرض على النار قبل يوم القيامة ، فيعذب. ومنها مايرزق وينعم فرحاً ، ويكون مسروراً قبل يوم القيامة. ولا شك أن أجساد آل فرعون وأجساد المقتولين فى سبيل الله ، قد تقطعت أوصالها وأكلها السباع والطير وحيوان الماء . فصحّ أن الأنفس منقولة من مكان إلى مكان. ولا شك فى أن العرَض لا يلقى العذاب ولا يحسّ ، فليست عرَضا . وصح أنها تنتقل فى الأماكن قائمة بنفسها ، وهـذه صفة الجسم لا صفة الجوهر عند القائل به ، فصح ، ضرورةً ، أنها جسم .

وأما من السنن فقول رسول الله ﷺ[٢] (إن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر فى الجنة) وقوله ﷺ[٣] ، إنه (رأى نَسَمَ بنى آدم عند سماء الدنيا عن يمين آدم ويساره) فصح أن الأنفس مرئيّة فى أماكنها ، وقوله عليه السلام[٤] (إن نفس المؤمن إذا قبضت ، عرج بها إلى السماء وفعل بها كذا . ونفس الكافر إذا قبضت فعل بها كذا) فصح أنها معذبة ومنعمة ومنقولة فى الأماكن ، وهذه صفة الأجسام ضرورة .

وأما من الإجماع ، فلا اختلاف بين أحد من أهل الإسلام فى أن أنفس العباد منقولة بعد خروجها من الأجساد ، إلى نعيم أو إلى صنوف ضيق وعذاب . وهذه صفة الأجسام .

ثم قال : ومعنى قول الله تعالى (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى)

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٩ و ١٧٠] . (٢) أخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة، حديث رقم ١٢١ (طبعتنا) عن عبد الله بن مسعود . (٣) انظر حديث الإسراء الذى أخرجه البخارىّ فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ١ ـ باب كيف فرضت الصلاة فى الإسراء ، حديث ٢٣٥ (عن أبى ذر) . (٤) أخرجه ابن ماجه فى : ٣٧ ـ كتاب الزهد ، ٣١ ـ باب ذكر الموت والاستعداد له ، حديث ٤٢٦٢ ، عن أبى هريرة (طبعتنا) .

إنما هو لأن الجسد مخلوق من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم عظماً ثم لحما ثم أمشاجاً . وليس الروح كذلك . وإنما قال الله تعالى آمِرًا له بالكون (كن فكان) . فصح أن النفس والروح والنسمة أسماء مترادفة لمعنى واحد ، وقد يقع الروح أيضا على غير هذا . فجبريل عليه السلام الروح الأمين . والقرآن روح من عند الله .

وقال ابن حزم أيضاً ، قبل ذلك ، فى بحث عذاب القبر : والذى نقول به فى مستقر الأرواح ، هو ما قاله الله تعالى ونبيه ﷺ لا نتعداه . فهو البرهان الواضح وهو أن الله تعالى قال[1] : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ) وقال تعالى[2] (وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟) فصح أن الله عز وجل خلق الأرواح جملة ، وهى الأنفس . وكذلك أخبر عليه السلام[3] (إن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف) ـ وهى العاقلة ، الحساسة ـ وأخذ عز وجل عهدها وشهادتها ـ وهى مخلوقة مصورة عاقلة ، قبل أن يأمر الملائكة بالسجود لآدم ، على جميعهم السلام . وقبل أن يدخلها فى الأجساد . والأجساد يومئذ تراب وماء . ثم أقرّها تعالى حيث شاء . لأن الله تعالى ذكر ذلك بلفظة (ثُمَّ) التى توجب التعقيب والمهلة . ثم أقرها عز وجل حيث شاء . وهو البرزخ الذى ترجع إليه عند الموت . لا تزال يبعث منها الجملة ، بعد الجملة . فينفخها فى الأجساد المتولدة من المنىّ ، المنحدر من أصلاب الرجال وأرحام النساء . كما قال تعالى[4] : (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ

(١) [٧ / الأعراف / ١٧٢] . (٢) [٧ / الأعراف / ١١] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٢ ـ باب الأرواح جنود مجندة ، حديث رقم ١٥٧٦ ، عن عائشة . وأخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البرّ والصلة والآداب ، حديث رقم ١٥٩ ، عن أبى هريرة (طبعتنا) . (٤) [٧٥ / القيامة / ٣٧و٣٨] .

كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ) وقال عز وجل[١]: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا) الآية وكذلك أخبر رسول الله[٢] ﷺ ؛ أنه (يجمع خلق ابن آدم فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح) فيبلوهم الله عز وجل فى الدنيا كما شاء . ثم يتوفاها فترجع إلى البرزخ الذى رآها فيه رسول الله ﷺ ليلة أسرى به عند سماء الدنيا : أرواح أهل السعادة عن يمين آدم عليه الصلاة والسلام ، وأرواح أهل الشقاوة عن يساره عليه السلام . وذلك عند منقطع العناصر ، وتعجل أرواح الأنبياء عليهم السلام وأرواح الشهداء إلى الجنة .

وقد ذكر محمد بن نصر المروزىّ عن إسحق بن راهويه ؛ أنه ذكر هذا القول الذى قلنا بعينه ، وقال : على هذا أجمع أهل العلم .

ثم قال ابن حزم : ولا تزال الأرواح هنالك ، حتى يتم عدد الأرواح كلها بنفخها فى أجسادها ثم برجوعها إلى البرزخ المذكور . فتقوم الساعة . ويعيد عز وجل الأرواح ثانية إلى الأجساد . وهى الحياة الثانية . ويحاسب الخلق : فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، مخلدين أبداً . انتهى .

فصل :

ومنهم شيخ الإسلام تقى الدين ابن تيمية ، عليه الرحمة ، قال فى : (تفسير سورة الإخلاص) بعد أن ذكر نزاع المتكلمين المتفلسفة فى الملائكة . هل هى متحيزة أم لا ؟ وكذلك نزاعهم فى روح الإنسان التى تفارقه بالموت ، على قول الجمهور الذين يقولون : هى عين قائمة بنفسها ليست عرضاً من أعراض البدن كالحياة وغيرها . ولا جزءاً من أجزاء

(١) [٢٣ / المؤمنون / ١٢ ـ ١٤] . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ٦ ـ باب ذكر الملائكة ، حديث ١٥١٤ ، عن عبد الله بن مسعود .

البدن كالهواء الخارج منه. فإن كثيراً من المتكلمين زعموا أنها عرض قائم بالبدن، أو جزء من أجزاء البدن . لكن هذا مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف والخلف . ولقول جماهير العقلاء من جميع الأمم . ومخالف للأدلة ، وهذا مما استطال به الفلاسفة على كثير من أهل الكلام .

قال القاضى أبو بكر : أكثر المتكلمين على أن الروح عرض من الأعراض . وبهذا نقول ، إذا لم يعن بالروح النفس ، فإنه قال: الروح الكائن فى الجسد ضربان : أحدهما الحياة القائمة به والآخر النفَس . والنفَس ريح ينبثّ به . والمراد بالنفس ، ما يخرج بنفس التنفس من أجزاء الهواء المتحلل من المسامّ . وهذا قول الإسفرائينىّ وغيره . وقال ابن فورك : هو ما يجرى فى تجاويف الأعضاء . وأبو المعالى خالف هؤلاء وأحسن فى مخالفتهم فقال : إن الروح أجسام لطيفة مشابكة للأجسام المحسوسة . أجرى الله العادة بحياة الأجساد ما استمرت مشابكتُها لها . فإذا فارقتها تعقب الموت الحياة فى استمرار العادة . ومذهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر سلف الأمة وأئمة السنة ، وأن الروح عين قائمة بنفسها . تفارق البدن وتنعم ، وتعذب . ليست هى البدن ، ولا جزءاً من أجزائه كالنفَس المذكور .

ثم الذين قالوا : إنها عين ، تنازعوا : هل هى جسم متحيز ؟ على قولين : كتنازعهم فى الملائكة. فالمتكلمون منهم يقولون: جسم. والمتفلسفة يقولون: جوهر عقلىّ ليس بجسم. وأصل تسميتهم المجردات والمفارقات، هو مأخوذ من نفس الإنسان. فإنها لما كانت تفارق بدنه بالموت، وتتجرد عنه ، سموها مفارقة مجردة . ثم أثبتوا ما أثبتوه من العقول والنفوس وسموها . مفارقات ومجردات . لمفارقتها المادة التى هى عندهم الجسم . وهذه المفارقات عندهم مالا يكون جسماً ولا قائما بجسم . لكن النفس متعلقة بالجسم تعلق التدبير . والعقلُ لا تعلق له بالأجسام أصلًا . ولا ريب أن جماهير العقلاء على إثبات الفرق بين البدن والروح التى تفارق .

والجمهور يسمون ذلك روحاً وهذا جسماً ـ لكن لفظ الجسم فى اللغة ليس هو الجسم فى اصطلاح المتكلمين . بل الجسم هو الجسد . وهو الجسم الغليظ ، أوغِلَظُه . والروح ليست مثل البدن فى الغلظ والكثافة ولذلك لا تسمى جسماً . فمن جعل الملائكة والأرواح جسما بالمعنى اللغوىّ ، فما أصاب فى ذلك . وأما أهل الاصطلاح من المتكلمة والمتفلسفة ، فيجعلون مسمى الجسم أعم من ذلك . وهو ما أمكنت الإشارة الحسيّة إليه . وماقيل إنه هنا وهناك . وما قَبِل الأبعاد الثلاثة ونحو ذلك .

ثم قال عليه الرحمة : وما يقوله هؤلاء المتفلسفة فى النفس الناطقة ، من أنها لايشار إليها ولا توصف بحركة ولا سكون ، ولا صعود ولا نزول ، وليس داخل العالم ولا خارجه ـ هو كلام باطل عند جماهير العقلاء . ولا سيما من يقول منهم ، كابن سينا وأمثاله : إنها لا تعرف شيئاً من الأمور الجزئية . وإنما تعرف الأمور الكلية . فإن هذا مكابرة ظاهرة . فإنها تعرف بدنها وتعرف كل ما تراه بالبدن وتشمه وتسمعه وتذوقه وتقصده وتأمر به وتحبه وتكرهه ، إلى غير ذلك مما تتصرف فيه بعلمها وعملها . فكيف يقال : إنها لاتعرف الأمور المعينة وإنما تعرف أمورا كلية ! ؟ وكذلك قولهم : إن تعلقها بالبدن ليس إلا مجرد تعلق التدبير والتصريف كتدبير الملك لمملكته ـ من أفسد الكلام . فإن الملك يدبر أمر مملكته، فيأمر وينهى . ولكن لا يصرفهم هو بمشيئته وقدرته ، إن لم يتحركوا هم بإرادتهم وقدرتهم .

والملك لا يلتذ بلذة أحدهم ولا يتألم بتألمه، وليس كذلك الروح والبدن . بل قد جعل الله بينهما من الاتحاد والائتلاف ما لا يعرف له نظير يقاس به . ولكن دخول الروح فيه ليس هو مماثلا لدخول شيء من الأجسام المشهودة . فليس دخولها فيه كدخول الماء ونحوه من المائعات فى الأوعية . فإن هذه إنما تلاقى السطح الداخل فى الأوعية لابطونها ولاظهورها . وإنما يلاقى الأوعية منها أطرافها دون أوساطها . وليس كذلك الروح والبدن . بل الروح

متعلقة بجميع أجزاء البدن باطنه وظاهره . وكذلك دخولها فيها ليس كدخول الطعام والشراب فى بدن الآكل. فإن ذلك له مجار معروفة ، وهو مستحيل إلى غير ذلك من صفاته . ولا جريانها فى البدن كجريان الدم . فإن الدم يكون فى بعض البدن دون بعض . ففى الجملة كل ما يذكر من النظائر لا يكون كل شىء منه متعلقا بالآخر . بخلاف الروح والبدن . لكن هى مع هذا فى البدن قد ولجت فيه . وتخرج منه وقت الموت . وتسلّ منه شيئاً فشيئاً . فتخرج من البدن شيئاً فشيئاً . لاتفارقه كما يفارق الملك مدينته التى يدبّرها . والناس لما لم يشهدوا لها نظيراً ، عسر عليهم التعبير عن حقيقتها . وهذا تنبيه لهم على رب العالمين ، حيث لم يعرفوا حقيقته ، ولاتصوروا كيف هو سبحانه وتعالى . وإن مايضاف إليه من صفاته هو على ما يليق به جل جلاله . فإن الروح ، التى هى بعض عبيده ، توصف بأنها تعرج إذا نام الإنسان . وتسجد تحت العرش . وهى مع هذا فى بدن صاحبها لم تفارقه بالكلية . والإنسان ، فى نومه ، يحس بتصرفات روحه تصرفات تؤثر فى بدنه . فهذا الصعود الذى توصف به الروح لا يماثل صعود المشهودات . فإنها إذا صعدت إلى مكان فارقت الأول بالكلية . وحركتها إلى العلوّ حركة انتقال من مكان . وحركة الروح بعروجها وسجودها ليس كذلك . انتهى .

فصل :

وكتب بعض المنقبين عن مباحث المدققين العصريين فى الروح ما مثاله : إن نظرية الروحيين التى يستدلون عليها فى أوربا بالحسّ فى هذه الأيام، هى أن للإنسان روحاً هبطت عليه من الملأ الأعلى . لايصل العقل إلى إدراك كنهها . وإنها متصلة بهذا الجسد الطينىّ ، بواسطة هيكل لطيف شفاف على شكل الجسد تماماً . ولكنه ليس من طبيعته ولا محكوماً بقوانينه . وإنه كغلاف للسرّ الإلهى المسمى روحاً . ولعل فى هذا ما يشبه قول الإمام مالك ابن أنس رضى الله عنه عن الروح (هى صورة كالجسد) ويقولون : إن الروح وغلافها هذا

يخرجان من الجسد عند حصول الموت للشخص، إلى عالم غير هذا العلم. ولكنهما لاينفصلان عنه كل الانفصال ، بل أرواح الموتى منتشرة حولنا فى كل جهة . ولكنا لانراها بأعيننا ، لعدم استعداد أعيننا لِذَلِكَ . كما أنها ليست مستعدة لرؤية أشعة (رونتجن) مع أنها موجود كما تدل عليه الآلة التى صنعها لها . وقد دخلت تطبيقاتها فى علم الطب وأفادت العلم الطبيعىّ فائدة كبرى . ولكن يوجد أشخاص فيهم استعداد خاص. به يرون الأرواح رائحة غادية ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم، رؤية حقيقية . انتهى . ملخصاً .

تنبيه :

جميع ما قدمناه ، بناء على أن المراد بالروح فى الآية روح الإنسان .

قال ابن القيم فى كتاب (الروح) : وفى ذلك خلاف بين السلف والخلف . وأكثر السلف ، بل كلهم ، على أن الروح المسؤول عنها فى الآيةليست أرواح بنى آدم. بل هوالروح الذى أخبر الله عنه فى كتابه ، أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة ، وهو ملَك عظيم. وقدثبت فى الصحيح[1] عن عبد الله قال : بينا أنا أمشى مع رسول الله ﷺ فى حرّة المدينة ، وهو متكئ على عسيب ، فمررنا على نفر من اليهود . فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ؟ وقال بعضهم : لاتسألوه عسى أن يخبر فيه بشىء تكرهونه. وقال بعضهم: نسأله . فقام رجل فقال : ياأبا القاسم ! ما الروح ؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ . فعلمت أنه يوحى إليه ، فقمت. فلما تجلى عنه قال : (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ...) الآية، ومعلوم أنهم إنما سألوه عن أمر لايعرف إلا بالوحى . وذلك هو الروح الذى عند الله لايعلمها الناس. وأما أرواح بنى آدم فليست من الغيب . وقد تكلم فيها طوائف الناس من أهل الملل وغيرهم . فلم يكن الجواب

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٤٧ ـ باب قول الله تعالى : وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا . حديث رقم ١٠٦ .

عنها من أعلام النبوة . فإن قيل : فقد روى أبو الشيخ عن السدّىّ عن أبى مالك ، عن ابن عباس قال : بعثت قريش عقبة بن أبى معيط وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة إلى يهود المدينة ، يسألونهم عن النبىّ ﷺ . فقالوا لهم : إنه قد خرج فينا رجل يزعم أنه نبىّ . وليس على ديننا . ولا على دينكم . قالوا : فمن تبعه ؟ قالوا : سفلتنا والضعفاء والعبيد ومن لاخير فيه . وأما أشراف قومه فلم يتبعوه . فقالوا : إنه قد أظلّ زمانُ نبىٍّ يخرج ، وهو على ماتصفون من أمر هذا الرجل ، فأتوه فاسألوه عن ثلاث خصال فأمركم بهن . فإن أخبركم بهن فهو نبىٌّ صادق . وإن لم يخبركم بهن فهو كذّاب . سلوه عن الروح التى نفخ الله تعالى فى آدم . فإن قال لكم : هى من الله ، فقولوا : كيف يعذب الله فى النار شيئاً هو منه . ؟ فسأل جبريل عنها فأنزل الله الآية . يقول : هو خلق من خلق الله ليس هو من الله .

قيل : مثل هذا الإسناد لايحتج به . فإنه من تفسير السدىّ عن أبى مالك . وفيه أشياء منكرة . وسياق هذه القصة فى السؤال ، من الصحاح والمسانيد ، كلها تخالف سياق السدّىّ . وقد رواها الأعمش والمغيرة عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : مر النبىّ ﷺ على ملأ من اليهود . وأنا أمشى معه . فسألوه عن الروح ، قال فسكت . فظننت أنه يوحى إليه. فنزلت (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ) يعنى اليهود (قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى..) الآية . وكذلك هى فى قراءة عبد الله . فقالوا كذلك نجد مثله فى التوراة أن الروح من أمر الله عز وجل . رواه جرير بن عبد الحميد وغيره عن المغيرة . وروى يحيى بن زكريا بن أبى زائدة ، عن داود بن أبى هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال: أتت اليهود إلى النبىّ ﷺ فسألوه عن الروح . فلم يجبهم النبىّ ﷺ بشىء . فأنزل الله عز وجل الآية . فهذا يدل على ضعف حديث السدّى ، وأن السؤال كان بمكة . فإن هذا الحديث وحديث ابن مسعود صريح أن السؤال كان بالمدينة مباشرة من اليهود. ولو كان قد تقدم السؤال والجواب بمكة، لم يسكت

النبي ﷺ ، ولبادر إلى جوابهم بما تقدم من إعلام الله له وما أنزل الله عليه . وقد اضطربت الروايات عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية أعظم اضطراب . فإما أن تكون من قبل الرواة ، أو تكون أقواله قد اضطربت فيها . ثم ساق ابن القيم الروايات عنه مسندة ، ثم قال : والروح فى القرآن على عدة أوجه :

أحدها : الوحى ، كقوله تعالى[١] : (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا) وقوله[٢] (يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ) وسمى الوحى روحاً لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح .

الثانى : القوة والثبات والنصرة التى يؤيد بها من شاء من عباده المؤمنين ، كما قال[٣] : (أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ) .

الثالث : جبريل كقوله تعالى[٤] : (نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ) وقال تعالى[٥] : (قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ) وهو روح القدس ، قال تعالى[٦] : (قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ) .

الرابع : الروح التى سأل عنها اليهود فأجيبوا بأنها من أمر الله . وقد قيل إنها الروح المذكورة فى قوله تعالى[٧] : (يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ) وإنها الروح المذكورة فى قوله[٨] : (تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم) .

الخامس : المسيح عيسى ابن مريم . قال تعالى[٩] : (إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ

---

(١) [٤٢ / الشورى / ٥٢] . (٢) [٤٠ / غافر / ١٥] .
(٣) [٥٨ / المجادلة / ٢٢] . (٤) [٢٦ / الشعراء / ١٩٣ ، ١٩٤] .
(٥) [٢ / البقرة / ٩٧] . (٦) [١٦ / النحل / ١٠٢] .
(٧) [٧٨ / النبأ / ٣٨] . (٨) [٩٧ / القدر / ٤] .
(٩) [٤ / النساء / ١٧١] .

رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ) أما أرواح بنى آدم فلم تقع تسميتها بالقرآن إلا بالنفس ، قال تعالى[١] (يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ) وقال[٢] (وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ) وقال[٣] : (إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ) وقال[٤] : (أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ) وقال[٥] : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا) وقال[٦] : (كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ) .

وأما فى السنة فجاءت بلفظ النفس والروح . انتهى .

قال ابن كثير : رواية عبد الله فى الصحيح المتقدمة ، تقتضى فيما يظهر ببادئ الرأى ، أن هذه الآية مدنية . وأنها إنما أنزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة . مع أن السورة كلها مكية . وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية . كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك . أو إنه نزل عليه الوحى بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه ، وهى هذه الآية (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ) انتهى .

وقد روى ابن جرير[٧] عن قتادة : أن الروح فى الآية هو جبريل عليه السلام . وحكاه عن ابن عباس .

أقول : الذى أراه متعينا فى الآية ، لسابقها ولاحقها ، أن المراد بالروح الوحى بالقرآن ، وهو قريب من قول قتادة . ووجه تعينه أن هذه الآية فى سياق ذكر القرآن وتنزيله والمنّة بكونه شفاء ورحمة ، وقد سمى تعالى الوحى بالقرآن روحاً : قال تعالى[٨] (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ

---

(١) [٨٩/ الفجر/ ٢٧] . (٢) [٧٥ / القيامة/ ٢] . (٣) [١٢/ يوسف / ٥٣] .
(٤) [٦/ الأنعام/٩٣]. (٥) [٩١/ الشمس/٧ و٨]. (٦) [٣/ آل عمران/١٨٥] .
(٧) انظر الصفحة ١٥٦ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبى الثانية) .
(٨) [٤٢ / الشورى / ٥٢] .

إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا) وقال[١] تعالى : (يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ) فكانوا إذا سمعوا الروح ، وصدعوا بالإيمان به ، يتعنتون فى السؤال عنه ، استبعاداً لأن يكون من لدنه سبحانه ، ولأن يكون بشر مثله مبعوثاً بأمره تعالى أن يبين لهم أنه وحى أوحاه الله ، وأنه روح من لدنه ، وإلقاء من أمره . ونظير هذه الآية قوله تعالى[٢] : (وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ) وقوله تعالى[٣] : (عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ * ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ) أى بعضهم ينكره وبعضهم يتردد فى صحته . وذلك لأنهم قوم جاهليون ، لا عهد لهم بالعلوم والمعارف ، فضلاً عن الوحى وخصائص النبوة ، للأمّية والجهالة الفاشيتين فيهم . كما أشير إليه بقوله تعالى : (وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) أى مما تناله مشاعركم وتصل إليه فطنكم . وما هو فى جنب معلومات لا تحصى ، إلا كالقطرة من البحر والذرة من الكثيب . والقاعدة أن القرآن متجاوب الأطراف ، يفسر بعضه بعضاً .

وجميع ما ذكره المتقدمون ، غير ما ذكرناه ، جرىٌ مع ما يحتمله نظم الآية الكريمة . وكذا رواية ابن مسعود أنه أجيب بها اليهود ، لأنها لما كان لها وجوه من المعانى ، ومنها ما سألوا عنه ، ألقموا بها . والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثم أشار تعالى إلى نعمته فيما أوحاه من هذا التنزيل والهداية به ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا)

« وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ » أى من القرآن الذى هو شفاء ورحمة للمؤمنين : وإنما عبر عنه بالموصول ، تفخيما لشأنه ، ووصفاً له بما هو فى حيز الصلة ، وإعلاما بأنه ليس من قبيل كلام المخلوق « ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا » أى من يتوكل علينا برده .

(١) [٤٠/غافر/ ١٥] . (٢) [١٠/يونس/ ٥٣] . (٣) [٧٨/النبأ/ ١ـ٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ، إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا)

« إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ » أى ولكن رحمة مِنْ ربك تركته غير مُشَاء الذهاب به بل تولت حفظه .

قال الزمخشرىّ : وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظًا ، بعد المنة العظيمة فى تنزيله وتحفيظه . فعلى كل ذى علم أن لايغفل عن هاتين المنّتين والقيام بشكرهما . وهما منة الله عليه بحفظه العلم ورسوخه فى صدره ، ومنته عليه فى بقاء المحفوظ « إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا » أى تفضله بالإيحاء والتعليم الربانىّ ، والاصطفاء للرسالة ، ثم أمره تعالى أن يخاطب أولئك المشركين الذين لم يفقهوا قدر التنزيل ، وأنه وحى ربانىّ ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)

« قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ » أى اتفقت « عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » أى معيناً . وفى تقاصر قوى هؤلاء جميعهم عن ذلك ، مع طول الزمن ، دليل قاطع على أنه ليس مما اعتيد صدوره عن البشر ، بل هو كلام عالم الغيب والشهادة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا)

«وَلَقَدْ صَرَّفْنَا» أى رددنا وكررنا وبيّنّا «لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ»

أى من كل معنى ، هو كالمثل فى غرابته وحسنه ، ليتقرر ويرسخ فى نفوسهم ، ويزدادوا تدبراً وإذعاناً . فكان حالهم على العكس ، إذ لم يزدادوا إلا كفراً ، كما قال سبحانه « فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا » أى جحوداً .

ولما تبين إعجاز القرآن ، وأنه الآية الكبرى ، ولزمتهم الحجة وغلبوا ، أخذوا يتعللون باقتراح الآيات ، فعلَ المبهوت المحجوج المتعثر فى أذيال الحيرة ، فيما حكاه تعالى عنهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا)

[٩١] (أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا)

[٩٢] (أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا)

[٩٣] (أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا)

« وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا » أى تشقق لنا من أرض مكة عيوناً « أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ » أى بستان منهما « فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا » وإنما قدموا فى عنتهم هذا المقترح ، لأنهم كانوا يَرِدُونَ بلاد الشام والعراق ، ويرون ما فيها من البساتين والأنهار .

قال ابن جرير[1] فيما رواه ، إنهم قالوا للنبيّ ﷺ : لقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلاداً . ولا أقل مالًا . ولا أشد عيشاً منا . فاسأل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به ، فليسيِّر عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا . وليفجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق . ثم زادوا فى الاقتراح فقالوا: «أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً» أى قطعاً بالعذاب «أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا» أى كفيلا بما تقول، شاهداً بصحته «أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ» أى ذهب : «أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ ، وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ» أى وحده «حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰباً نَّقْرَؤُهُۥ» أى كتاباً من السماء ، فيه تصديقك «قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى» أى تنزيها له . والمراد به التعجب من اقتراحاتهم «هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَراً رَّسُولًا» أى كسائر الرسل. وكانوا لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله عليهم من الآيات ، حسبما يلائم حال قومهم . ولم يمكن أمر الآيات إليهم ، ولا لهم أن يتحكموا على الله بشىء منها .

تنبيه :

لايخفى ما فى اقتراح هذه الآيات من الجهل الكبير بسنة الله فى خلقه، وبحكمته وجلاله. وبيان ذلك ـ كما فى كتاب (لسان الصدق) ـ أن ما قترحه قريش فيها (منه) ما أرادوا به مصلحتهم دون مصلحة العباد مما يخالف حكمة الله تعالى المقتضية لإخلاء بعض البقاع من العيون النابعة والأنهار الجارية والجنان الناضرة دون بعض . وإرساء الجبال الشم فى موضع دون آخر ، لمصالح يعلمها هو جلت عظمته . ولا يعلمها الخلق . فليس مقترحهم هـذا من العجز فى شىء . مع أن مثله لاتثبت به النبوة . فإننا نعلم أن أناساً قد استنبطوا العيون وغرسوا الجنان من النخيل والأعناب ونحتوا الجبال ولم يكونوا بذلك أنبياء (ومنه) ما يناقض إرادة الله سبحانه وهو قولهم : (أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً) فإن إنزال السماء

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٤ ، ١٦٥ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبيّ الثانية) .

قطعاً مقتضٍ لهلاك العالم بحذافيره . والله يريد إبقاءه إلى أجل معلوم (ومنه) ماهو مستحيل فى نفسه غير ممكن وقوعه أصلا وهو قولهم : (أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا) فإن الإتيان بالله والملائكة حتى يشاهدهم المشركون أو غيرهم مما لايمكن أن يكون . فلا يجوز طلبه ، وليس من أنواع المعجز (ومنه) ما لا يصلح للأنبياء، ولو حصل لم يكن معجزاً وهو قولهم : (أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ) فإن هذا غير صالح للأنبياء . وليس بمعجز ، لحصول مثله عند أشباه فرعون (ومنه) ماوعدوا بعدم إيمانهم به لو حصل ، وأردفوه بما لايجوز وهوقولهم : (أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ) فيه ـ على ماذكر فى الرواية ـ من الله العظيم إلى فلان وفلان وفلان، لقوم من قريش بأسمائهم . أما بعد . فإن محمداً رسولى فآمنوا به. والصعود فى السماء لا مزية فيه، لأنهم قالوا: (وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ) فلو كان ، لكان عبثاً . وإنزال كتاب عليهم على المعنى المذكور يستلزم جعلهم أنبياء ، لأن ذلك وحى مثل التوراة والإنجيل . والوحى مختص بالأنبياء ، والكفارُ عنه معزولون . فلم يكن شىء مما اقترحوه فى الآيات معجزاً . وإنما هى أمور مستحيلة فى نفسها ، أو لأمر آخر . اقترحوها تكبراً وتعنتاً وجهلا . على أنهم بعد تلك الأقوال كلهاقال قائل منهم: وايم الله! لوفعلت ذلك لظننت أنى لاأصدقك. وقد قال تعالى[1]: (وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا) فكَانَ الْأَوْلى فى جوابهم عما اقترحوه ، هو ماأجاب به ﷺ من قوله تعالى : (قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا) أى تنزه ربى عن فعل ما اقترحتموه من المحال وما يناقض حكمته. وما أنا إلا بشر رسول. علىّ أن أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم . وقد أتيتكم بما يدل على صدق رسالتى مما أوحاه إلىّ . وذلك ماتحديتكم بالإتيان

(١) [٦ / الأنعام / ١١١] .

بسورة مثله فى الهداية والإصلاح . كما أمرنى ربى . ولا أقترح عليه ، سبحانه ، مالا يجوز أن يكون . أو ما يكون فعله عبثاً ، لخلوّه عن الفائدة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا)

«وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ» أى الذين حكى تعنتهم « أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا » أى إلّا تعجبهم من بعثة إنسانٍ رسولا . بمعنى إنكارهم أن يكون الرسول من جنس البشر . كما قال تعالى[1] : (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ) والآيات فى ذلك كثيرة . ثم نبه تعالى على لطفه ورحمته بعباده ، أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم ليفقهوا عنه ويفهموا منه ، ويمكنهم مخاطبته ومكالمته . حتى لو كانت الأرض مستقرا للملائكته ، لكانت رسلهم منهم ، جرياً على قضية الحكمة .

فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا)

« قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ » أى على أقدامهم كما يمشى الإنس « مُطْمَئِنِّينَ » أى ساكنين فى الأرض قارّين « لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكاً رَّسُولًا » أى من جنسهم ، ليعلمهم الخير ويهديهم المراشد . ولما كنتم أنتم بشراً ، بعثنا

(١) [١٠ / يونس / ٢] .

فيكم رسلا منكم . كما قال تعالى[1]: (كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ » .

تنبيه :

فى الآية إشارة إلى حاجة من يستقر فى الأرض إلى الرسالة . وقد قضت رحمة البارى تعالى وعنايته بذلك ، فمنّ على الخلق بالرسل وأتم حاجتهم بخاتم أنبيائه فأنقذهم من الحيرة ، وخلصهم من التخبط ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ، إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا)

« قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ » أى على أنى بلغت ماأرسلت به إليكم ، وإنكم كذبتم وعاندتم . وقرر الرازىّ أن المعنىّ بالشهادة هو الشهادة على رسالته عليه الصلاة والسلام بإعجاز القرآن . أى كفى بما أكرمنى به تعالى من هذا المعجز ، شاهداً على صدقى . ومن شهد تعالى على صدقه فهو صادق . فقولكم ، معشر المشركين ، بعد هذا ، يجب أن يكون الرسول ملكا ، تحكم فاسد . اه .

وناقشه أبو السعود بأن ماقرره لايساعده قوله تعالى (بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ) وما بعده من التعليل . ثم قال أبو السعود . وإنما لم يقل بيننا تحقيقاً للمفارقة، وإبانة للمباينة. وقوله تعالى: « إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا » أى عالما بأحوالهم . فهو مجازيهم . وهذا تسلية لرسول الله ﷺ ووعيد للكفرة .

---

(١) [٢ / البقرة / ١٥١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ، وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ، وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ، مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا)

« وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ » أى إلى الحق بما جاء من قبله إلى الهدى « فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ، وَمَن يُضْلِلْ » أى يخلق فيه الضلال بسوء اختياره ، كهؤلاء الماندين « فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ » أى أنصاراً يهدونهم ويحفظونهم من قهره ، وإنما أوثر ضمير الجماعة فى (لَهُمْ) حملًا على معنى (مَنْ) وأوثر فى ما قبله الإفراد ، حملًا على اللفظ . وسر الاختلاف فى المتقابلين الإشارة إلى وحدة طريق الحق ، وقلة سالكيه ، وتعدد سبل الضلال وكثرة الضُّلَّال « وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ) أى يسحبون عليها كقوله[1] (يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ) .

وقال القاشانىّ : أى ناكسى الرؤوس لانجذابهم إلى الجهة السفلية ! وعلى وجوداتهم وذواتهم التى كانوا عليها فى الدنيا . كقوله (كَمَا تَعِيشُونَ تَمُوتُونَ وَكَمَا تَمُوتُونَ تُبْعَثُونَ) إذ (الوجه) يعبر به عن الذات الموجودة مع جميع عوارضها ولوازمها . أى على الحالة الأولى من غير زيادة ونقصان . وقوله تعالى « عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا » أى كما كانوا فى الدنيا لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق ، ويتصامّون عن استماعه ـ فهم فى الآخرة كذلك لا يبصرون ما يقر أعينهم ، ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم ، ولا ينطقون بما يقبل منهم[2] (وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ) ـ كذا فى (الكشاف) « مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ » أى سكن لهيبها ، بأن أكلت جُلُودَهُمْ ولحومهم « زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا » أى توقدا . بأن نبدل جلودهم ولحومهم ، فتعود ملتهبة مستعرة .

(١) [٥٤ / القمر / ٤٨] . (٢) [١٧ / الإسراء / ٧٢] .

قال الزمخشرىّ : كأنهم لما كذبوا بالإعادة بعد الإفناء ، جعل الله جزاءهم أن سلط النار على أجزائهم تأكلها وتفنيها . ثم يعيدها . لا زالون على الإفناء والإعادة ليزيد ذلك فى تحسرهم على تكذيبهم البعث . ولأنه أدخل فى الانتقام من الجاحد . وقد دل على ذلك بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا)

« ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا » أى لَمُحْيَوْنَ خلقاً جديداً ، بإعادة الروح فينا ، إذا تلف لحمنا وبقينا عِظاماً . بل رقت عظامنا فصارت رفاتاً . ثم احتج تعالى عليهم ، ونبههم على قدرته على ذلك بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا)

« أَوَلَمْ يَرَوْا۟ » أى يعلموا « أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ » أى يوم القيامة . يُنْشِئُهُمْ نشأة أخرى ويعيدهم كما بدأهم . والمعنى : قد علموا بدليل العقل أن من قدر على خلق السموات والأرض ، فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس . لأنهم ليسوا بأشد خَلْقاً منهن . كما قال[1] : (ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ) ولا الإعادة أصعب عليه من الإبداء . بل هى أهون .

قال الشهاب : ولا حاجة إلى جعل (مثل) هنا كناية عنهم . كقوله : (مثلك لا يبخل) مع أنه صحيح . ولو جعل خلق مثلهم عبارة عن الإعادة ، كان أحسن « وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا

(١) [٧٩ / النازعات / ٢٧] .

لَّا رَيْبَ فِيهِ » أى جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلًا مضروباً ومدة مقدرة لابد من انقضائها. كما قال تعالى[1] : (وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ) ، « فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ » أى بعد قيام الحجة عليهم ووضوح الدليل : « إِلَّا كُفُورًا » أى جحوداً وتمادياً فى باطلهم وضلالهم.

لطيفة :

قال الشهاب : هذه الجملة ـ جملة وجعل الخ ـ معطوفة على جملة (أَوَ لَمْ يَرَوْا) لأنها وإن كانت إنشائية ، فهى مؤولة بخبرية ـ كما فى (شرح الكشاف) إذ معناها : قد علموا بدلالة العقل أنه قادر على البعث والإعادة (وَجَعَلَ لَهُمْ) أى لإعادتهم (أَجَلًا) وهو يوم القيامة يعنى أنهم علموا إمكانها وإخبار الصادق بها وضربه لها أجلا . فيجب التصديق به . أو جعل لهم أجلًا ، وهو الموت والانسلاخ عن الحياة . ولا يخفى على عاقل أنه لم يخلق عبثًا. فلا بد أن يجزى بما عمله فى هذا الدار . فلا معنى للإنكار . فظهر ارتباط المتعاطفين ، لفظًا ومعنى و (لَّا رَيْبَ فِيهِ) ظاهر على الثانى . وعلى الأول معناه : لا ينبغى إنكاره لمن تدبر . وقيل إنها معطوفة على قوله : (يَخْلُقَ) . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ، وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا)

« قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ » أى رزقه وسائر نعمه على خلقه : « إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ » أى لبخلتم بها مخافة نفادها بالإنفاق . مع أنها لا تفرغ ولا تنفد أبداً . لأن هذا من طباعكم وسجاياكم . ولهذا قال سبحانه « وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا » أى بخيلا .

(١) [١١ / هود / ١٠٤] .

تنبيهات :

الأول : هذه الآية بلغت بالمشركين ، من الوصف بالشح ، الغاية التى لا يبلغها الوهم، كما قاله الزمخشرىّ .

الثانى : ما اقتضاه آخر الآية من بخل كل أحد فأما بالنسبة إلى الجواد الحقيق سبحانه؛ لأن المرء إما ممسك أو منفق . والثانى لا يكون إلا لغرضٍ للعاقل، إما دنيوىّ كعوض مالىّ ، أو معنوىّ كثناء جميل، أو خدمة واستمتاع، كما فى النفقة على الأهل . وما كان لعوض مالىّ كان مبادلة لا مباذلة . أو هو بالنظر إلى الأغلب ، وتنزيل غيره منزلة العدم كما قيل :

عَـدِّنَا فى زماننا عن حَدِيثِ المَكَارِمِ
مَنْ كَفَى الناس شَرَّهُ فهو فى جُودِ حَاتِمِ

أفاده الشهاب .

وقال ابن كثير : إن الله تعالى يصف الإنسان من حيث هو . إلا من وفّقه الله وهداه ، فإن البخل والجزع والهلع صفة له . كما قال تعالى[1] (إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ) ولهذا نظائر كثيرة فى القرآن العزيز.

الثالث : ذكر هـذه الآية إثْرَ ما قبلها ، لتقرير انفراده تعالى بملك خزائن الرحمة ، وسعة كرمه وجوده وإحسانه . كما انفرد بتلك القدرة الباهرة من خلق السموات والأرض، كى تنجلى لهم قدرته العظمى ، وسعة خزائنه الملأى . فيصلوا بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه الرسول ﷺ ، وحقيةِ ما يدعوهم إليه .

وذكر هذ المعنى فى أسلوب بيان ما فطر عليـــه الإنسان ، تذكيراً له بنقصه وضعفه ، وإشفاقه وحرصه . ليعلم أنه غير مخلوق سدى ، يُخَلَّى بينه وبين ما تقتضاه به نفسه وهواه . والمعنى : أفلا تعتبرون بسعة رحمته وعميم فضله ، ممـا يبرهن على وحدانيته فى ألوهيته ،

(١) [٧٠ / المعارج / ١٩ ـ ٢٢] .

ولا ترون ما أنتم عليه من أنكم لو ملكتم مالا نفاد له من خزائنه، لضننتم بها . مما يدلكم على أنه هو مالك الملك ، وأنكم مُسَخَّرُون لأمره . وهذه الآية كقوله تعالى[1] (أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا) أى لو أن لهم نصيبًا فى ملك الله ، لما أعطوا أحداً شيئاً ولا مقدار نقير . وقد جاء فى الصحيحين[2] : (يَدُ اللهِ مَلأَى لا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار . أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما فى يمينه) وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ، فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا)

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ » واضحات الدلالة على صحة ما أرسله الله به . وقد مضى الكلام عليها فى سورة الأعراف فى قوله تعالى (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ..)الآية ، «فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ» أى عنها : فإنهم يعلمونها، مما لديهم من التوراة. فيظهر للمشركين صدقك ، ويزداد المؤمن بك طمأنينة قلب . لأن الأدلة إذا تظاهرت ، كان ذلك أقوى وأثبت « إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا » أى فذهب إلى فرعون وأظهر آياته ، ودعاه للإيمان به تعالى ولإرسال بنى إسرائيل معه . فقال له فرعون ما قال . وقوله (مَسْحُورًا) بمعنى سُحِرْتَ فخولط عقلك . أو بمعنى ساحر ، على النسب أو حقيقة . وهو يناسب قلب العصا ثعباناً . وعلى الأول هو كقوله[3] (إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ) .

(١) [٤ / النساء / ٥٣] . (٢) أخرجه البخارىّ فى:٩٧ ـ كتاب التوحيد، ١٩ ـ باب حدثنا معاذ بن فضالة حديث ٢٠١٢ ، عن أبى هريرة .
وأخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث رقم ٣٦ و ٣٧ (طبعتنا) .
(٣) [٢٦ / الشعراء / ٢٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا)

« قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ » أى يا فرعون « مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ » أى الآيات التسع « إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ » أى بيّنات مكشوفات لا سحر ولا تخيّل . ولكنك معاند مكابر . ونحوه[1] (وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) (والبصائر) جمع بصيرة بمعنى مبصرة أى بيّنة . أو المراد الحجج ، بجعلها كأنها بصائر العقول . وتكون بمعنى عبرة « وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا » أى هالكا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا)

[١٠٤] (وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا)

« فَأَرَادَ » أى فرعون « أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ » أى يفزعهم ويزعجهم بما يحملهم على خفة الهرب فَرَقًا منه . أو ينفيهم عن ظهر الأرض بالقتل والاستئصال . والضمير لموسى وقومه . و (الأرض) أرض مصر . أو الأرض التى أذن لهم بالمسير إليها وسكناها وهى فلسطين ، وقوله تعالى « فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا » أى فحاق به مكره . لأنه تعقبهم بجنوده بعد ما أذن لهم بالسفر من مصر إلى فلسطين، ليرجعهم إلى عبوديته ، فدمره الله تعالى وجنوده بالإغراق « وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ » أى من بعد إغراقه « لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ » وهى أرض كنعان ، بلد أبيهم إسرائيل التى وعدوا بها .

(١) [٢٧ / النمل / ١٤] .

قال ابن كثير : فى هذا بشارة للنبىّ ﷺ بفتح مكة ، مع أن السورة مكية نزلت قبل الهجرة . وكذلك وقع فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها كما قال تعالى[1] (وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا) الآيتين . ولهذا أورث الله رسوله مكة فدخلها عنوة ، على أشهر القولين، وقهر أهلها ثم أطلقهم حلما وكرماً . كما أورث الله القوم ، الذين كانوا يستضعفون من بنى إسرائيل ، مشارق الأرض ومغاربها وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم كما قال[2] (كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ) وقال ههنا (وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ) وقوله تعالى (فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ) أى قيام الساعة «جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً» أى جمعا مختلطين أنتم وعدوكم . ثم يحكم بينكم ويميز بين سعدائكم وأشقيائكم . ثم نزه سبحانه ساحة القرآن أن يكون مفترى . وبيّن اشتماله على ما يلائم الفطر ويطابق الواقع ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ، وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)

[١٠٦] (وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا)

« وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ » أى بالحقيقة أنزلناه كتاباً من لدنّا فأين تذهبون؟ كما قال تعالى[3] (لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ) « وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ » أى متلبسا بالحق الذى هو ثبات نظام العالم على أكمل الوجوه . وهو ما اشتمل عليه من العقائد والأحكام ومحاسن الأخلاق وكل ماخالف الباطل . كقوله تعالى[4] (لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ) « وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ » أى نزلناه مفرقاً منجماً . وقرئ بالتشديد . والقراءتان

(١) [١٧ / الإسراء / ٧٦] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ٥٩] .
(٣) [٤ / النساء / ١٦٦] . (٤) [٤١ / فصلت / ٤٢] .

بمعنى « لِتَقْرَأَهُ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ » أى على مهل وتؤدة وتثبت ، فإنه أيسر للحفظ وأعون فى الفهم « وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا » أى من لدنّا على حسب الأحوال والمصالح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ، إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا) (سجدة)

[١٠٨] (وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا)

[١٠٩] (وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا)

« قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ، إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا » .

قال الزمخشرىّ : أمر بالإعراض عنهم واحتقارهم والازدراء بشأنهم ، وأن لا يكترث بهم وبإيمانهم وبامتناعهم عنه . وإنهم إن لم يدخلوا فى الإيمان ولم يصدقوا بالقرآن وهم أهل جاهلية وشرك ، فإن خيراً منهم وأفضل ، وهم العلماء الذين قرأوا الكتب وعلموا ماالوحى وما الشرائع ، قد آمنوا به وصدقوه . وثبت عندهم أنه النبىّ العربىّ الموعود فى كتبهم . فإذا تلى عليهم خرّوا سجداً وسبحوا الله تعظيما لأمره ، ولإنجازه ماوعد فى الكتب المنزلة ، وبشر به من بعثة محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه . وهو المراد بالوعد فى قوله (إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا) .

فإن قلت (إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ) تعليل لماذا ؟ قلت : يجوز أن يكون تعليلًا لقوله (ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟) ، وأن يكون تعليلا ا (قل) على سبيل التسلية لرسول الله ﷺ وتطييب نفسه . كأنه قيل : تسلَّ عن إيمان الجهلة بإيمان العلماء . وعلى الأول : إن لم تؤمنوا به

لقد آمن به من هو خير منكم . فإن قلت : ما معنى الخرور للذقن ؟ قلت : السقوط على الوجه . وإنما ذكر الذقن ، وهو مجتمع اللحيين ، لأن الساجد أول ما يلقى به الأرض من وجهه، الذقن . فإن قلت: حرف الاستعلاء ظاهر المعنى، إذا قلت خرّ على وجهه وعلى ذقنه ، فما معنى اللام فى (خَرّ لذقنه ولوجهه) قال : نخر صريعاً لليدين وللغم ؟ قلت : معناه جعل ذقنه ووجهه للخرور . واختصه به . لأن اللام للاختصاص . فإن قلت : لم كرر يخرون للأذقان ؟ قلت : لاختلاف الحالين ، وهما خرورهم فى حال كونهم ساجدين ، وخرورهم فى حال كونهم باكين . انتهى .

تنبيه :

دل نعت هؤلاء ومدحهم بخرورهم باكين ، على استحباب البكاء والتخشع . فإن كل ما حمد فيه من النعوت والصفات التى وصف الله تعالى بها من أحبه من عباده، يلزم الاتصاف بها . كما أن ما ذَمّ منها من مَقَتَهُ منهم ، يجب اجتنابه .

وقد عدّ الإمام الغزالىّ فى (الإحياء) من آداب ظاهر التلاوة البكاء . قال : البكاء مستحب مع القراءة. قال رسول الله ﷺ (١) (اتلوا القرآن وابكوا. فإن لم تبكوا فتباكوا) وقال ابن عباس رضى الله عنهما: إذا قرأتم سجدة سبحان، فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا، فإن لم تبك عين أحدكم ، فلييك قلبه . وإنما طريق تكلف البكاء أن يحضر قلبه الحزن . فمن الحزن ينشأ البكاء، ووجه إحضار الحزن، أن يتأمل مافيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود . ثم يتأمل تقصيره فى أوامره وزواجره فيحزن لا محالة ويبكى. فإن لم يحضره حزن وبكاء ، كما يحضر أرباب القلوب الصافية ، فلييك على فقد الحزن والبكاء . فإن ذلك أعظم المصائب . انتهى .

وذكر السيوطىّ فى (الإكليل) أن الشافعىّ استدل بقوله تعالى (وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ) الآية ، على استحباب هذا الذكر فى سجود التلاوة . وقوله تعالى :

(١) أخرجه ابن ماجه فى: ٥ ـ كتاب الإقامة، ١٧٦ ـ باب فى حسن الصوت بالقرآن. حديث ١٣٣٧ (طبعتنا) عن سعد بن أبى وقاص .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ، أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ، وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا)

[١١١] (وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا)

«قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ» ردٌّ لما أنكره المشركون من تسمية الرحمن ، وإذنٌ بتسميته بذلك . أى سموه بهذا الاسم أو بهذا . و (أو) للتخيير . «أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ » أى أىُّ هذين الاسمين سميتم وذكرتم فهو حسن . وقد وضع موضعه قوله (فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ) للمبالغة والدلالة على ماهو الدليل عليه . إذ حسن جميع أسمائه يستدعى حسن ذينك الاسمين . فأُقيم فيه دليل الجواب مقامه ، وهو أبلغ .

ومعنى كونها أحسن الأسماء ، أنها مستقلة بمعانى الحمد والتقديس والتعظيم . وهذه الآية كآية[1] (وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا) « وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ » أى بقراءة صلاتك . بتقدير مضاف ، أو تسمية القراءة صلاة ، لكونها من أهم أركانها . كما تسمى الصلاة ركعة « وَلَا تُخَافِتْ بِهَا » أى تُسرّ وتخفى « وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا » أى بين الجهر والمخافتة ، أمراً وسطاً . فإن خير الأمور أوساطها .

قال أبو السعود : والتعبير عن ذلك بالسبيل ، باعتبار أنه أمر يتوجه إليه المتوجهون ، ويؤمه المقتدون ، ويوصلهم إلى المطلوب .

روى الشيخان[2] أن رسول الله ﷺ كان يرفع صوته بقراءته . فإذا سمعها المشركون

---

(١) [٧ / الأعراف / ١٨٠] . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ١٧ سورة الإسراء ، ١٤ ـ باب ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ، حديث ٢٠٢٠ عن ابن عباس . وأخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث رقم ١٤٥ (طبعتنا) .

لغوا وسبوا . فأمر بأن يتوسط فى صوته ، كيلا يسمع المشركون ، وليبلغ من خلفه قراءته .

ثم بيّن سبحانه استحقاقه للحمد لاختصاصه بنعوت الكمال وصفات الجلال ، بقوله تعالى « وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا » أى لَمْ يَكُنْ علةً لموجود من جنسه ، لضرورة كون المعلول محتاجاً إليه ، ممكنا بالذات ، معدوماً بالحقيقة . فكيف يكون من جنس الموجود حقًّا ، الواجب بذاته من جميع الوجوه ؟ « وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ » أى من يساويه فى قوة القهر والمملكة من الشريك فى الملك . وإلا لكانا مشتركين فى وجوب الوجود والحقيقة . فامتياز كل واحد منهما عن الآخر ، لابدّ وأن يكون بأمر غير الحقيقة الواجبة . فلزم تركبهما ، فكانا كلاهما ممكنين لا واجبين . وأيضا فإن لم يستقلا بالتأثير ، لم يكن أحدهما إلـها . وإن استقل أحدهما دون الآخر فذلك هو الإله دونه ، فلا شريك له . وإن استقلا جميعاً ، لزم اجتماع المؤثرين المستقلين على معلول واحد ، إن فعلا معا . وإلا لزم إلهية أحدهما دون الآخر ، رضى بفعله أو لم يرض . أفاده القاشانىّ .

« وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ » أى ناصر من الذل ومانع له منه ، لاعتزازه به . أو لم يوال أحداً من أجل مذلة به ، ليدفعها بموالاته « وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا » أى عظمه عن أن يلحقه شىء من هذه النقائص تعظيماً جليلًا .

تمّ ما علقناه على هذه السورة الكريمة ، ضحوة السبت فى ٢٦ شوال سنة ١٣٢٣ فى سدّة جامع السنانية بدمشق الشام . يسر الله لنا بعونه الإتمام ، والحمد لله وحده .

تم الجزء العاشر ، ويليه ، إن شاء الله تعالى ، الجزء الحادى عشر ، وفيه تفسير :
(١٨ ـ سورة الكهف ، و ١٩ ـ سورة مريم ، و ٢٠ ـ سورة طه ،
و ٢١ ـ سورة الأنبياء) .

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٠٦٢ / ١٩٦٩